

فَضَائِلُ الْعَرَبِيَّةِ

وَجُودُ تَعَلُّمِ الْعَالِي الْمُسْلِمِينَ

تأليف

أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ رَسْلَانَ

مكتبة البلاغ

سبك الاحد - أشمون - المنوفية

ت: ٠١٢١٠٦٩٦٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

● مَقْدَمَةُ الْمَقَدَّمَاتِ ●

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ
بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ
فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا
إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا
عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا
وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ
وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا
اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾

[النساء : ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رقم الإيداع : 15751 / 2001

I.S.B.N: 977-310-142-8

الطبعة الثانية

٢٠٠٥ هـ - ١٤٢٦ م

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا *
يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب : ٧٠-٧١] .

أما بعد :

فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ اللهِ ، وخيرُ الهدي هديُّ
مُحمَّدٍ ﷺ ، وشَرُّ الأمورِ محدثاتها ، وكلُّ مُحدثَةٍ
بدعةٌ ، وكلُّ بدعةٍ ضلالةٌ ، وكلُّ ضلالةٍ في النارِ .

○ ثُمَّ أَمَّا بعدُ :

فقد أنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ القرآنَ معجزةً باقيةً للنبيِّ ﷺ
إلى يومِ القيامةِ .

وما كان عبثًا ؛ أن يختارَ اللهُ عزَّ وجلَّ العربَ -
حاشا وكلاً - ليصطفيَ منهم رسوله الخاتم ﷺ ،
وينزلَ بلسانِهِم كتابَهُ الْمُعْجِزَ ؛ المتعبَّد بتلاوتهِ إلى يومِ
الدِّينِ .

لأنَّه « إذا كانت اللغةُ هي خِزانةِ الفكرِ الإنسانيِّ ،
فإنَّ خزائنَ العربيةِ قد ادَّخرتْ من نفيسِ البيانِ الصحيحِ
عن الفكرِ الإنسانيِّ ، وعن النفوسِ الإنسانيةِ ، ما يُعْجِزُ
سائرَ اللغاتِ ؛ لأنَّها صُفِّيت منذ الجاهليةِ الأولى المُعْرِقةِ
في القِدَمِ ، من نفوسٍ مختارةٍ بريئةٍ من الخسائسِ المزريةِ ،
ومن العِلَلِ الغالبةِ ، حتَّى إذا جاءَ إسماعيلُ نبيُّ اللهِ ، بن
إبراهيمَ خليلِ اللهِ ، أخذها وزادها نِصَاعَةً وبراعةً
وكرَمًا ، وأسلمها إلى أبنائِهِ من العربِ ، وهم على
الحنيفَةِ السَّمْحَةِ دينِ أبيهم إبراهيمَ ، فظَلَّتْ تتحدَّرُ على
ألسنتِهِم مختارةً مصفَّاةً مبرَّاةً ، حتَّى أظَلَّ زمانُ نبيِّ لا
ينطقُ عن الهوى ، ﷺ ، فأنزلَ اللهُ بها كتابَهُ بلسانِ
عربيٍّ مبينٍ ، بلا رمزٍ مبنيٍّ على الخرافاتِ والأوهامِ ، ولا
ادِّعاءٍ لما لم يكن ، ولا نِسْبَةِ كَذِبٍ إلى اللهِ ، تعالى اللهُ
عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا » ^(١) .

(١) «أباطيل وأسفار» العلامة محمود محمد شاكر (ص٤٣٦) .

● وقد كانت العربُ أمراءَ البيانِ وملوكَ الفصاحةِ ؛
يومَ رُلَ القرآنُ يتحدّاهم أن يأتوا بسورةٍ من مثله ، ولم
يكتب بيبابِ عجزِهِم عن الإتيانِ بمثله في الحال ، بل
صرّحَ بفضّحِ عجزِهِم عن ذلك على التأييدِ ، وجعلَ
عجزَهُم - وهم كانوا من الفصاحةِ حيثُ كانوا - دليلاً
على أنَّ هذا الكتابَ ليس في مقدورِ بشرٍ ، ولو كان في
مقدورِ بشرٍ لَأَتَوْا بمثله ، وما مسَّهم من لُغوبٍ .

قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ
عِبْدِنَا فَاتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ
الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ .

[البقرة : ٢٣-٢٤]

قال ابن كثير رحمه الله تعالى :

« شَرَعَ تعالى في تقريرِ النبوةِ ، بعد أن قرَّرَ أنه لا إله
إلا هو ، فقال مخاطباً الكافرين : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ

مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عِبْدِنَا ﴾ . يعني : محمداً ﷺ ﴿ فَاتُوا
بِسُورَةٍ ﴾ من مثل ما جاء به ، وإن زعمتم أنه من عند
غيرِ الله : فعارضوه بمثل ما جاء به ، واستعينوا على ذلك
بمن شئتم من دونِ الله ، فإنكم لا تستطيعون ذلك .

وقد تحكّم الله تعالى بهذا في غير موضع من
القرآن ، فقال في « سورة القصص » [٤٩] : ﴿ قُلْ فَاتُوا
بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴾ .

وقال في « سورة سبحان » [٨٨] : ﴿ قُلْ لِّئِنْ
اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا
يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ .

وقال في « سورة هود » [١٣] : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ
قُلْ فَاتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ
مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

وقال **فـ** «سورة يونس» [٣٧-٣٨]: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ نَصِيبُ الَّذِي يَنْبَغِي يَدِينَهُ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وكل هذه الآيات: **مكية**، ثم تحدّاهم بذلك أيضًا في **المدينة**، فقال **فـ** هذه الآية: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾، أي: شك ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾. يعني: محمّدًا ﷺ ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾. يعني: من مثل القرآن.. وقد تحدّاهم بهذا في **مكة والمدينة** مرّات عديدة، مع شدّة عداوتهم له وبغضهم لدينه، ومع هذا عجزوا عن ذلك.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾، و﴿لَنْ﴾. لنفي التأييد، أي: ولن تفعلوا ذلك أبدًا. وهذه أيضًا معجزة أخرى، وهو أنّه أخبر خبرًا جازمًا

قاطعًا، مُقدّمًا غير خائف ولا مُشْفِقٍ - أنّ هذا القرآن لا يُعَارَضُ بمثله أبدًا، وكذلك وَقَعَ الأمر، لم يُعَارَضْ من لدنّه إلى زماننا هذا، ولا يمكن، وأنّي يتأتّى ذلك لأحد، والقرآن كلام الله خالق كل شيء، وكيف يُشبهه كلام الخالق كلام المخلوقين^(١)!

● ولم يكن هذا القرآن الذي تحدّاهم به مؤلفًا من غير حروف لغتهم التي رَضَعُوا لِبَنَانِهَا صغَارًا، وارتاضو أنفسهم على أدبها - شعرا ونثرا - كبارًا، وقد ذكر الله عزّ وجلّ في مَطْلَعِ سورٍ من كتابه حروفًا مُقَطَّعةً، «للتنبية إلى أنّ هذا الكتاب مؤلّف من جنس هذه الأحرف، وهي في متناول المخاطبين به من العرب. **ولكنه** - مع هذا - هو ذلك الكتاب المعجز، الذي لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله، الكتاب

(١) «عمدة التفسير»، وهو «مختصر تفسير ابن كثير» للعلامة أحمد شاكر

الذي يتحدثهم مرّة ومرّة ومرّة أن يأتوا بمثله ، أو بقشر
شور مثله ، أو بسورة من مثله فلا يملكون لهذا التحدي
جواباً»^(١).

وهذا الوجه في الأحرف المقطعة في أوائل السور ، هو
الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية ، كما صرح بذلك
ابن كثير في «تفسيره» ، حيث قال رحمه الله :

«ذكرت هذه الأحرف في أوائل السور التي ذكرت
فيها ؛ بياناً لإعجاز القرآن ، وأن الخلق عاجزون عن
معارضته بمثله ، هذا ؛ مع أنه من هذه الحروف المقطعة
التي يتخاطبون بها .. وإليه ذهب الشيخ الإمام العلامة
أبو العباس بن تيمية ، وشيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج
المزي ، وحكاها لي عن ابن تيمية»^(٢).

وذكر الزمخشري عفا الله عنه : أنها «هكذا مسزودة
على نمط التعديد كالإيقاظ وقزع العصا لمن تُحدّى
بالقرآن ، وبغرابة نظميه ، وكالتحريك للنظر في أن هذا
المتلو عليهم ، وقد عجزوا عنه عن آخرهم : كلام منظوم
من عين ما ينظمون منه كلامهم ؛ ليؤديهم النظر :
إلى أن يستيقنوا أن لم تتساقط مقدرتهم دونه ، ولم
تظهر معجزتهم»^(١) عن أن يأتوا بمثله بعد المراجعات
المتطاولة ، وهم أمراء الكلام وزعماء الحوار ، وهم
الحراس على التساجل في اقتضاب الخطب ،
والتمهالكون على الافتنان في القصيد والرجز ، ولم
يلغ من الجزالة وتحسن النظم المبالغ التي برزت بلاغة كل
ناطق ، وشقت غبار كل سابق ، ولم يتجاوز الحد
الخارج من قوى الفصحاء ، ولم يقع وراء مطامح أعين
البصراء إلا لأنه ليس بكلام البشر ، وأنه كلام خالق

(١) المفجزة والمفجزة : العجز . «لسان العرب» (٢٨١٧).

(١) في «ظلال القرآن» (٣٨/١).

(٢) «عمدة التفسير» (٩٣/١).

القوى والقدر، وهذا القول من القوة، والخلافة بالقبول بمنزلة (١).

• وقد بين الله عز وجل في مواضع كثيرة من كتابه؛ أن هذا الكتاب عربي، وأنه نزل بلسان العرب الذي كانوا به ينطقون، وأن هذا الكتاب ليس أعجميًا، بل هو قرآن عربي مبين.

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَنَزَّلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

(١) «الكشاف» للزمخشري (٢٠/١).

قال الشنقيطي رحمه الله: «يَنْ جَلَّ وَعَلَا كَذِبُهُمْ وَتَعَتُّهُمْ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾: بِقَوْلِهِ: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾، أي: كيف يكون تعلُّمه من ذلك البشر، مع أن ذلك البشر أعجمي اللسان، وهذا القرآن: عربي مبين فصيح، لا شائبة فيه من العُجمَةِ!؟ هذا غير معقول.

وَيَنْ شِدَّةَ تَعَتُّهِمْ أَيْضًا؛ بَأَنَّهُ لَوْ جَعَلَ الْقُرْآنُ أَعْجَمِيًّا لَكَذَّبُوهُ أَيْضًا، وقالوا: كيف يكون هذا القرآن أعجميًا مع أن الرسول الذي أنزل عليه عربي؛ وذلك في قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَلَّا تُعْجَمِي وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت: ٤٤].

أي: أقرآن أعجمي، ورسول عربي!؟ فكيف ينكرون أن القرآن أعجمي والرسول عربي، ولا ينكرون أن المعلم المزعوم أعجمي، مع أن القرآن المزعوم تعليمه له عربي؟؟

كما بينت تعنتكم ايضاً ؛ بآئه لو نزل هذا القرآن العربي المبين ، على أعجمي فقرأه عليهم عربياً ؛ لكذبوه ايضاً ، مع ذلك الخارق للعادة ؛ لشدة عنادهم وتعنتهم ، **وذلك في قوله :** ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَغْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشراء : ١٩٨-١٩٩] .
وقوله تعالى : ﴿ يُلْحِدُونَ ﴾ :

اي : يُميلون عن الحق ، والمعنى : لسان البشر الذي يلحدون - **اي :** يُميلون - قولهم عن الصدق والاستقامة إليه ، أعجمي غير يبيّن ، وهذا القرآن لسان عربي مبين ، أي : ذو بيان وفصاحة^(١) .

وقال القرطبي رحمه الله :

« يقال : رجل أعجم وأعجمي : إذا كان غير فصيح وإن كان عربياً ، ورجل عجمي وإن كان فصيحاً ،

يُنسب إلى أصله »^(١) .

وقال تعالى : ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت : ٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ .

[طه : ١١٣]

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر : ٢٧-٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى : ٧] .

(١) « تفسير القرطبي » (٤٨٥٥) .

(١) « أضواء البيان » لمحمد الأمين الشنقيطي (٣/٣٣٧) .

هذا بيان ربنا سبحانه ؛ أَنَّ القرآن العظيم إنما نزل بلغّة العرب ، وبلسانهم ، فاجتمع من هذا ومن دعوتيه إلى التدبّر فيه : أَنَّ الدعوة إلى المعرفة بلغّة العرب ما تزال قائمة .

اقول هذا ؛ لأنه ربّما قال قائل : إنّ التدبّر فيه هو النظر في قوانينه التي قنّنها ، ووسائل الإصلاح التي فضّلها ، والحدود التي حدّها ، والشرائع التي شرّعها ، وآفاق السموات والأرض التي جلّاها ، إلى غير ذلك من علومه وفنونه ، وهذا ممكن للعربي والعجمي من غير كبير فارق .

نعم ، ربّما قال قائل ذلك ؛ فاقول : إنّ القوم الذين نزل القرآن بلغتهم : كانوا عرباً جرى القرآن في مقتضى قانون لغتهم ، وتحدّاهم أن يأتوا بمثله ، فعجزوا ، ويعجز من بعدهم من بعدهم أبداً ؛ لأنّ الإعجاز بالتحدي لا يزال قائماً : ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ

يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٨] .

وايضاً : فالسور الأولى التي أنزلت بمكة في أول العهد بنزول الوحي كانت غير منطوية على نُظم تشريعية ، ولا قوانين تنظيمية ، وإنّما لحظ أولئك العرب الإعجاز في نُظم هذا القرآن نفسه .

○ **وعلا قدر المعرفة بلغّة العرب تكون المعرفة بفضل القرآن وعُلُو شأنه :**

قال ابن القيم رحمه الله تعالى :

« ولأنّنا يعرف فضل القرآن ؛ من عرف كلام العرب ، فعرف علم اللّغة ، وعلم العربية ، وعلم البيان ، ونظر في أشعار العرب وخُطبها ومقاولاتها : في مواطن افتخارها ، ورسائلها ، وأراجيزها ، وأسجاعها ؛ فعلم منها : تلوين الخطاب ومعدوله ، وفنون البلاغة وضروب

الفصاحة، وأجناس التجنيس، وبدائع البديع،
ومحاسن الحكيم والأمثال.

فإذا عَلِمَ ذلك ونظرَ في هذا الكتاب العزيز، ورأى ما
أودعه الله سبحانه فيه من البلاغة والفصاحة وفنون
البيان، فقد أوتي فيه العجب العجائب، والقول الفضل
اللُّباب، والبلاغة الناصعة التي تحيّر الألباب، وتغلّق
دونها الأبواب، فكان خطابه للعرب، بلسانهم لتقوم به
الحُجّة عليهم، ومجاراته لهم في ميدان الفصاحة ليسيل
رداء عجزهم عليهم، ويثبت أنّه ليس من خطايهم
لديهم، فعجزت عن مجاراته فصحاؤهم، وكلّت عن
التطّيق بمثله ألسنة بلغائهم، وبرز في رونق الجمال
والجلال، في أعدل ميزان من المناسبة والاعتدال؛
ولذلك: يقع في النفوس عند تلاوته وسماعه من
الرّوعة ما يملأ القلوب هيبةً، والنفوس خشيةً، وتستلذه
الأسماع، وتميل إليه بالحنين الطّباع، سواء كانت فاهمةً

لمعانيه أو غير فاهمة، عالمة بما يحتويه أو غير عالمة،
كافرة بما جاء به أو مؤمنة^(١).

● ولا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن العظيم،
والوقوف على ذلك، إلّا عن طريق معرفة لغة العرب،
ومعرفة ما كان عليه العرب الذين نزل القرآن في زمنهم
من الفصاحة والبيان واللّسن، ومن لم تكن له بذلك
دراية، ولا له عليه إقبال، فشأنه شأن الأعجمي الذي
يعرف الإعجاز في القرآن من عجز العرب الأقدمين عن
الإتيان بمثله.

قال القاضي الباقلاني:

«قد بيّنا: أنّه لا يتهيأ لمن كان لسانه غير العربية،
من العجم والترك، وغيرهم، أن يعرفوا إعجاز القرآن إلّا
بأن يعلموا أنّ العرب قد عجزوا عن ذلك. فإذا عرفوا

(١) «الفوائد المشوق إلى علوم القرآن» لابن القيم (٧).

هذا - بأن علموا أنهم قد تحووا إلى أن يأتوا بمثله ،
وقرعو على ترك الإتيان بمثله ، ولم يأتوا به - : تبينوا
أنهم عاجزون عنه . وإذا عجز أهل ذلك اللسان ، فهم
عنه أعجز .

وكذلك نقول : إن من كان من أهل اللسان العربي
إلا أنه ليس يبلغ في الفصاحة الحد الذي يتناهى إلى
معرفة أساليب العرب ، ووجوه تصرف اللغة ، وما
يعدونه فصيحاً بليغاً بارعاً من غيره - : فهو
كالأعجمي ؛ في أنه لا يمكنه أن يعرف إعجاز
القرآن ، إلا بمثل ما يتناهى أن يعرف به الفارسي الذي بدأنا
بذكره ، وهو ومن ليس من أهل اللسان : سواء^(١) .

وليس من غرضنا هنا : أن نتحدث عن إعجاز
القرآن ، وتفصيل اختلاف وجوه النظر فيه ، وإنما
غرضنا : أن نبين أن هذا القرآن المجيد : يحتاج إلى

(١) « إعجاز القرآن » للباقلاني (ص ١٧١) .

معرفة بلغة العرب حتى يفهم على وجهه ، وحتى تدرك
مقاصده ، وما كان النبي ﷺ يتحدى القوم إلا بمعجزة
عظيمة باهرة .

وقد بين النبي ﷺ في الحديث المتفق على صحته ،
أن معجزته العظيمة الظاهرة هي القرآن ، وأنه بهذا
القرآن : يكون أكثر الأنبياء تابعاً يوم القيامة ، فمن أبي
هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « مَا مِنْ
الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ
عَلَيْهِ الْبَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحْيًا أَوْحَى اللَّهُ
إِلَيَّ ؛ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ »^(١)
أخرجه البخاري ومسلم ، واللفظ له .

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » ، كتاب فضائل القرآن : باب كيف نزل
الوحي « فتح الباري » (٨/٦١٩) ، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب
والسنة : باب بعثت بهجوات الكلم « فتح الباري » (١٣/٢٦١) ،
وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان من « صحيحه » [شرح النووي] (٢/١٨٧) .

ولهذا ؛ لَمَّا كَانَ الْعَرَبُ الَّذِينَ بُعِثَ فِيهِمُ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْغَايَةِ مِنَ الْبَلَاغَةِ : جَاءَهُمُ بِالْقُرْآنِ ؛ الَّذِي تَحَدَّاهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ .

وقوله : « فَأَرْجُوا أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » :

رَتَّبَ هَذَا الْكَلَامَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ مُعْجَزَةِ الْقُرْآنِ الْمُسْتَمِرَّةِ ، لِكثْرَةِ فَائِدَتِهِ وَعُمُومِ نَفْعِهِ ؛ لِاشْتِمَالِهِ عَلَى الدَّعْوَةِ وَالْحُجَّةِ وَالْإِخْبَارِ بِمَا سَيَكُونُ ، فَعَمَّ نَفْعُهُ : مَنْ حَضَرَ وَمَنْ غَابَ ، وَمَنْ وَجَدَ وَمَنْ سَيُوجَدُ .

○ **وقد جمع بعضهم إعجاز القرآن في أربعة أشياء :**

أحدها : حُسْنُ تَأْلِيْفِهِ ، وَالثَّامُ كَلِمِهِ مَعَ الْإِيجَازِ وَالبَلَاغَةِ .

وثانيها : صَوْرَةُ سِيَاقِهِ وَأَسْلُوبِهِ الْمُخَالِفِ لِأَسَالِيبِ كَلَامِ أَهْلِ الْبَلَاغَةِ مِنَ الْعَرَبِ نَظْمًا وَنَثْرًا ، حَتَّى حَارَتْ فِيهِ

قال الحافظ رحمه الله :

« قوله : « وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيْتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ » ، **أي :** إِنَّ مُعْجَزَتِي الَّتِي تَحْدِثُ بِهَا : الْوَحْيُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيَّ ؛ وَهُوَ الْقُرْآنُ ؛ لَمَّا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِعْجَازِ الْوَاضِحِ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ حَضَرَ مُعْجَزَاتِهِ ﷺ فِيهِ ، وَلَا أَنَّهُ لَمْ يُؤْتِ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ مَا أُوتِيَ مَنْ تَقَدَّمَ ، بَلِ الْمُرَادُ أَنَّهُ الْمُعْجَزَةُ الْعَظْمَى الَّتِي اخْتَصَّ بِهَا دُونَ غَيْرِهِ ، لِأَنَّ كُلَّ نَبِيٍّ أُعْطِيَ مُعْجَزَةً خَاصَّةً بِهِ ، لَمْ يُعْطَ بِعَيْنِهَا غَيْرُهُ تَحْدِثُ بِهَا قَوْمَهُ ، وَكَانَتْ مُعْجَزَةُ كُلِّ نَبِيٍّ تَقَعُ مُنَاسِبَةً لِحَالِ قَوْمِهِ ، كَمَا كَانَ السَّحَرُ فَاشِيًا عِنْدَ فِرْعَوْنَ فَجَاءَهُ مُوسَى بِالْعَصَا عَلَى صُورَةٍ مَا يَصْنَعُ السَّحَرَةُ لَكُنْهََا تَلَقَّفَتْ مَا صَنَعُوا ، وَلَمْ يَقَعْ ذَلِكَ بِعَيْنِهِ لَغَيْرِهِ ، وَكَذَلِكَ إِحْيَاءُ عِيسَى الْمَوْتَى وَإِبْرَاءُ الْأَكْمَه وَالْأَبْرَصِ ، لَكُنْ الْأَطْبَاءُ وَالْحُكَمَاءُ كَانُوا فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ فِي غَايَةِ الظُّهُورِ ، فَأَتَاهُمْ مِنْ جَنْسِ عَمَلِهِمْ بِمَا لَمْ تَصِلْ قُدْرَتُهُمْ إِلَيْهِ .

عقولهم، ولم يهتدوا إلى الإتيان بشيء مثله، مع توفر دواعيهم على تحصيل ذلك، وتقريعه لهم على العجز عنه.

وثالثها: ما اشتمل عليه من الإخبار عما مضى من أحوال الأمم السالفة، والشرائع الدائرة، مما كان لا يعلم منه إلا النادر من أهل الكتاب.

ورابعها: الإخبار بما سيأتي من الكوائن التي وقع بعضها في العصر النبوي وبعضها بعده.

ومن غير هذه الأربعة، آيات وردت بتعجيز قوم في قضايا أنهم لا يفعلونها: فعجزوا عنها مع توفر دواعيهم على تكذيبه؛ كتنبي اليهود الموت، **ومنها**: الروعة التي تحصل لسامعيه، **ومنها**: أن قارنه لا يمل من ترده، وسامعه لا يمجّه، ولا يزداد بكثرة التكرار إلا طراوة ولذاذة، **ومنها**: أنه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا، **ومنها**: جمعه لعلوم ومعارف لا تنقضي

عجائبها، ولا تنتهي فوائدها»^(١) اهـ. ملخصاً من كلام عياض وغيره.

○ وقد كان النبي ﷺ من الفصاحة والبلاغة حيث لا يدانك؛ «على أنه لا يتكلف القول، ولا يقصد إلى تزيينه، ولا يبغى إليه وسيلة من وسائل الصنعة، ولا يجاوز به مقدار الإبلاغ في المعنى الذي يريده، ثم لا يعرض له في ذلك سقط ولا استكراه، ولا تسترله الفجأة وما يئذه من أغراض الكلام عن الأسلوب الرائع، وعن النمط الغريب والطريقة المحكمة، بحيث لا يجد النظر إلى كلامه طريقاً يتصفح منه صاعداً أو منحدراً؛ ثم أنت لا تعرف له إلا المعاني التي هي إلهام النبوة، ونتائج الحكمة، وغاية العقل، وما إلى ذلك مما يخرج به الكلام وليس فوقه مقدار إنساني من البلاغة والتسديد وبراعة القصد

(١) «فتح الباري» لابن حجر العسقلاني (٦٢٣/٨).

« بُعِثَتْ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ ، وَنُصِرَتْ بِالرُّغَبِ ، وَبَيَّنَّا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ فَوَضِعْتُ فِي يَدَيَّ » (١) متفق عليه .

وفجد رواية لمسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ » .

وذكر الحافظ شريح « جوامع الكلم » عن الزهري ، « وحاصله : أنه ﷺ كان يتكلم بالقول الموجز القليل اللفظ الكثير المعاني ، وجزم غير الزهري : بأن المراد « بجوامع الكلم » : القرآن ؛ بقرينة قوله : « بُعِثْتُ » والقرآن : هو الغاية في إيجاز اللفظ واتساع المعاني » (٢) .

(١) أخرجه البخاري في مواضع من « صحيحه » ، انظر « فتح الباري » ، (٦/ ١٤٩) ، (٤١٨/١٢) ، (٢٦١/١٣) .

وأخرجه مسلم في « صحيحه » ، انظر « شرح النووي » ، (٥/٥) .

(٢) « فتح الباري » ، (٢٦١/١٣) .

والجبيء في كل ذلك من وراء الغاية .. ولا نعلم أن هذه الفصاحة قد كانت له ﷺ إلا توفيقاً من الله وتوقيفاً ، إذ ابتعته للعرب ، وهم قوم يقادون من ألسنتهم ، ولهم المقامات المشهورة في البيان والفصاحة ؛ ثم هم مختلفون في ذلك على تفاوت ما بين طبقاتهم في اللغات وعلى اختلاف مواطنهم ، فمنهم الفصيح والأفصح ، ومنهم الجافي والمضطرب ، ومنهم ذو اللؤنة والخالص في منطقته ، إلى ما كان من اشتراك اللغات وانفرادها بينهم ، وتخصيص بعض القبائل بأوضاع وصيغ مقصورة عليهم ، لا يساهمهم فيها غيرهم من العرب ، إلا من خالطهم أو دنا منهم دنو المأخذ » (١) .

وفجد الحديث المتفق على صحته : أنه ﷺ أُعْطِيَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

(١) « تاريخ آداب العرب » لمصطفى صادق الرافعي (٢/ ٢٨٢) .

وقال النووي :

قال ابن جرير رحمه الله :

« قوله ﷺ : « أُعْطِيتْ جَوَامِعُ الْكَلِمِ » ، وفي الرواية الأخرى « بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ » ، قال الهروي : يعني به القرآن ؛ جمع الله تعالى في الألفاظ اليسيرة منه المعاني الكثيرة ، وكلامه ﷺ كان بالجوامع قليل اللفظ كثير المعاني »^(١) .

قوله : ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ ، يقول : ومن فضل الله عليك يا محمد ، مع سائر ما تفضل به عليك من نعمه ، أنه أنزل عليك ﴿ الْكِتَابَ ﴾ ، وهو القرآن الذي فيه بيان كل شيء وهدى وموعظة ، ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ ، - يعني : وأنزل عليك مع الكتاب الحكمة ، وهي ما كان في الكتاب مجملًا ذكره ، من حلاله وحرامه ، وأمره ونهيه ، وأحكامه ، ووعدته ووعدته^(١) .

وفي « عمدة التفسير » :

« امتنَّ عليه بتأييده إياه في جميع الأحوال ، وعصمته له ، وما أنزل عليه من الكتاب وهو القرآن ، والحكمة وهي السنة »^(٢) .

وقد سمَّاهُ الله تعالى « السَّنة » : حكمة في غير ما موضع من الكتاب العزيز : قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٣] .

(١) « تفسير الطبري » تحقيق محمود شاكر (٢٠٠/٩) .

(٢) « عمدة التفسير » (٢٦٧/٣) .

(١) « شرح النووي » (٥/٥) .

وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يُثْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٤].
قال ابن كثير رحمه الله:

«اي: واعملن بما ينزل الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ في بيوتكن من الكتاب والسنة، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾. اي: ذا لطف بكن، إذ جعلكن في البيوت التي تثنى فيها آيات الله والحكمة، وهي السنة»^(١)

○ وهذه اللغة؛ التي نزل بها القرآن، وتكلم بها النبي ﷺ: أوسع اللغات مدى، وأبسطها لساناً، وقد تنازع العلماء في ألفاظ وردت في كتاب الله عز وجل واطقتها ألفاظ في ألسنة أقوام من غير العرب؛ كالفرس والحبش والترك، وعرض الإمام الشافعي - رحمه الله - لذلك في «رسالته» العظيمة، فبين أن ليس في القرآن

(١) «تفسير ابن كثير» (٨٠٣/٣).

لفظ غير عربي، وفي تضاعيف بيانه درر نفيسة عن فضل اللسان العربي وفضل الناطقين به، ولنفاضة هذا البيان أنقله لك على طوله:

قال الشافعي رحمه الله تعالى:

«وقد تكلم في العلم من لو أمسك عن بعض ما تكلم فيه منه لكان الإمساك أولى به وأقرب من السلامة له، إن شاء الله:

فقال منهم قائل: إن في القرآن عربياً وأعجمياً.

والقرآن يدل على أن ليس من كتاب الله شيء إلا بلسان العرب، ولعل من قال: إن في القرآن غير لسان العرب، وقيل ذلك منه: ذهب إلى أن من القرآن خاصاً يجهل بعضه بعض العرب.

ولسان العرب: أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظاً، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير

نَبِيٍّ، وَلَكِنَّهُ لَا يَذْهَبُ مِنْهُ شَيْءٌ عَلَى عَامَّتِهَا، حَتَّى لَا يَكُونَ مَوْجُودًا فِيهَا مَنْ يَعْرِفُهُ.

والعلم به - اي : بلسانِ العرب - عند العرب : كالعلمِ بالسنةِ عند أهلِ الفقه : **لَا نَعْلَمُ** رجلاً جَمَعَ الشُّنَنَ فلم يَذْهَبْ مِنْهَا عَلَيْهِ شَيْءٌ.

فَإِذَا جُمِعَ عِلْمُ عَامَّةِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِهَا : أَتَى عَلَى الشُّنَنِ . وَإِذَا فُرِّقَ عِلْمُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ : ذَهَبَ عَلَيْهِ الشَّيْءُ مِنْهَا ، ثُمَّ كَانَ مَا ذَهَبَ عَلَيْهِ مِنْهَا مَوْجُودًا عِنْدَ غَيْرِهِ . وَهَمَّ فِي الْعِلْمِ طَبَقَاتٌ : مِنْهُمْ : الْجَامِعُ لِأَكْثَرِهِ ، وَإِنْ ذَهَبَ عَلَيْهِ بَعْضُهُ ، وَمِنْهُمْ : الْجَامِعُ لِأَقَلِّ مَا جَمَعَ غَيْرُهُ .

وليس قليلٌ ما ذَهَبَ مِنَ الشُّنَنِ عَلَى مَنْ جَمَعَ أَكْثَرَهَا : دَلِيلًا عَلَى أَنْ يُطْلَبَ عِلْمُهُ عِنْدَ غَيْرِ طَبَقَتِهِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، بَلْ يُطْلَبُ عِنْدَ نَظَرَائِهِ مَا ذَهَبَ عَلَيْهِ ، حَتَّى

يُؤْتَى عَلَى جَمِيعِ شُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ ، بِأَبْجَدِهِ هُوَ وَأُمَمُهُ ، فَيَتَفَرَّدُ جَمَلَةُ الْعُلَمَاءِ بِجَمْعِهَا ، وَهُمْ دَرَجَاتٌ فِيمَا وَعَوْا مِنْهَا .

وَهَكَذَا لِسَانُ الْعَرَبِ عِنْدَ خَاصَّتِهَا وَعَامَّتِهَا : لَا يَذْهَبُ مِنْهُ شَيْءٌ عَلَيْهَا ، وَلَا يُطْلَبُ عِنْدَ غَيْرِهَا ، وَلَا يَعْلَمُهُ إِلَّا مَنْ قَبِلَهُ عَنْهَا ، وَلَا يَشْرُكُهَا فِيهِ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَهَا فِي تَعْلُمِهِ مِنْهَا ، وَمَنْ قَبِلَهُ مِنْهَا فَهُوَ مِنْ أَهْلِ لِسَانِهَا ، وَإِنَّمَا صَارَ غَيْرُهُمْ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ بِتَرْكِهِ ، فَإِذَا صَارَ إِلَيْهِ : صَارَ مِنْ أَهْلِهِ ، وَعِلْمُ أَكْثَرِ اللِّسَانِ فِي أَكْثَرِ الْعَرَبِ : أَعْمُ مِنْ عِلْمِ أَكْثَرِ الشُّنَنِ فِي الْعُلَمَاءِ .

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : فَقَدْ نَجَدُ مِنَ الْعَجَبِ مَنْ يَنْطِقُ بِالشُّجَرِ مِنْ لِسَانِ الْعَرَبِ .

فَذَلِكَ يَحْتَمِلُ مَا وَصَفْتُ مِنْ تَعْلُمِهِ مِنْهُمْ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ تَعْلَمُهُ مِنْهُمْ فَلَا يَوْجَدُ يَنْطِقُ إِلَّا بِالْقَلِيلِ مِنْهُ ، وَمَنْ نَطَقَ بِقَلِيلٍ مِنْهُ : فَهُوَ تَبَعَ لِلْعَرَبِ فِيهِ ، وَلَا تُنْكِرُ إِذْ

كان اللفظ قِيلَ تَعَلُّمًا أو نُطِقَ به موضوعًا : أن يوافق لسانُ العجم أو بعضها قليلًا من لسانِ العرب ، كما ياتَّفِقُ^(١) القليلُ من أَلْسِنَةِ العجم المتباينة في أكثر كلامها ، مع تنائي ديارها ، واختلاف لسانها ، وبُعْدِ الأواصرِ بينها وبين مَنْ وافقت بعضُ لسانه منها .

فإن قال قائلٌ : ما الحجةُ في أن كتابَ الله مُحَضَّرٌ بلسانِ العرب ، لا يَخْلِطُهُ فيه غيره ؟

فالحجةُ فيه : كتابُ الله ، قال الله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ [إبراهيم : ٤] .

(١) قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله : « تاتَّفَقَ » فعل مضارع لم تدغم فيه فاء الافتعال ، بل قلبت حرفًا لينًا من مجتثتين الحركة قبلها ، وهي لغة أهل الحجاز ، يقولون : اتفق ، ياتفق ، فهو موافق . ولغة غيرهم الإدغام ، يقولون : اتفق ، يتفق ، فهو متفق ، والشافعي يكتب ويتحدث بلغته : لغة أهل الحجاز . انظر هامش (ص ٣١) من « الرسالة » للشافعي بتحقيق أحمد محمد شاكر .

فإن قال قائلٌ : فإن الرُّسُلَ قبل محمد كانوا يُرْسَلُونَ إلى قومهم خاصَّةً ، وإنَّ محمدًا بُعِثَ إلى الناس كافةً : فقد يَحْتَمِلُ أن يكون بُعِثَ بلسان قومهِ خاصَّةً ، ويكون على الناس كافةً أن يتعلَّموا لسانه وما أطاقوا منه ، ويحتمل أن يكون بُعِثَ بألسنتهم : فهل مِنْ دليل على أنه بُعِثَ بلسان قومهِ خاصَّةً دون ألسنة العجم ؟

فإذا كانت الألسنة مُخْتَلِفَةً بما لا يفهمه بعضهم من بعض : فلا بُدَّ أن يكونَ بعضهم تَبَعًا لبعض ، وأن يكون الفضلُ في اللسانِ المتَّبَعِ على التابع .

وأولى النَّاسِ بالفضلِ في اللسانِ مَنْ لسانُهُ لسانُ النبي ، ولا يجوزُ - والله أعلم - : أن يكونَ أَهْلُ لسانِهِ أتباعًا لأهلِ لسانٍ غيرِ لسانِهِ في حرفٍ واحدٍ ، بل كلُّ لسانٍ : تَبَعَ للسانِهِ ، وكلُّ أَهْلٍ دينِ قَبْلَهُ : فعليهم اتِّباعُ دينه .

وقد بين الله ذلك في غير آية من كتابه :

قَالَ اللَّهُ : ﴿ وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء : ١٩٢-١٩٥] .

وَقَالَ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ [الرعد : ٣٧] .

وَقَالَ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الشورى : ٧] .

وَقَالَ : ﴿ حَمْدٌ * وَالكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف : ١-٣] .

وَقَالَ : ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ .

[الزمر : ٢٨]

قال الشافعي : فأقام حُجَّتَهُ بأنَّ كتابه عربيٌّ ، في كلِّ آيةٍ ذكرناها ، ثمَّ أكَّدَ ذلك بأن نفى عنه - جل

ثناؤه - كلَّ لسانٍ غيرِ لِسَانِ الْعَرَبِ ، في آيتين من كتابه :

فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [النحل : ١٠٣] .

وَقَالَ : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ [فصلت : ٤٤] .

قال الشافعي : وَعَرَفْنَا نِعَمَهُ بِمَا خَصَّنَا بِهِ مِنْ مَكَانِهِ ، فَقَالَ : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

وَقَالَ : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] .

وكان مما عَرَفَ اللَّهُ نَبِيَّهٗ مِنْ إِنْعَامِهِ أَنْ قَالَ: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، فَخَصَّ قَوْمَهُ بِالذِّكْرِ معه بكتابه.

وَقَالَ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

وَقَالَ: ﴿لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧].

وَأُمُّ الْقُرَى: مَكَّةُ، وهي بلده وبلد قومه، فجعلهم في كتابه خَاصَّةً، وأدخلهم مع المُنْذِرِينَ عَامَّةً، وَقَضَى أَنْ يُنْذِرُوا بِلِسَانِهِم الْعَرَبِيَّ: لِسَانِ قَوْمِهِ مِنْهُمْ خَاصَّةً.

فعلى كل مسلم ان يتعلم من لسان العرب ما بلغه جَفْدُهُ، حَتَّى يَشْهَدَ بِهِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَيَتْلُو بِهِ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَنْطِقَ بِالذِّكْرِ فِيمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ مِنَ التَّكْبِيرِ، وَأَمَرَ بِهِ مِنَ التَّسْبِيحِ وَالتَّشْهِيدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وما اَزْدَادَ مِنَ الْعِلْمِ بِاللِّسَانِ، الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ لِسَانَ مَنْ خَتَمَ بِهِ نُبُوَّتَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ آخِرَ كِتَابِهِ: كَانَ خَيْرًا لَهُ، كَمَا عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ الصَّلَاةَ وَالذِّكْرَ فِيهَا، وَيَأْتِيَ الْبَيْتَ، وَمَا أَمَرَ بِاتِيَانِهِ، وَيَتَوَجَّهَ لِمَا وَجَّهَ لَهُ، وَيَكُونَ تَبَعًا فِيمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ وَنُذِبَ إِلَيْهِ، لَا مَتَّبِعًا^(١).

○ قَالَ الشَّيْخُ أَحْمَدُ شَاكِرٌ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مُعَلِّقًا:

«في هذا معنى **سَيَاسِيٍّ وَقَوْمِيٍّ** جليلٌ؛ لِأَنَّ الْأُمَّةَ الَّتِي نَزَلَ بِلِسَانِهَا الْكِتَابُ الْكَرِيمُ، يَجِبُ عَلَيْهَا أَنْ تَعْمَلَ عَلَى نَشْرِ دِينِهَا، وَنَشْرِ لِسَانِهَا، وَنَشْرِ عَادَاتِهَا وَآدَابِهَا: بَيْنَ الْأُمَمِ الْأُخْرَى، وَهِيَ تَدْعُوهَا إِلَى مَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّهَا مِنَ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، لِتَجْعَلَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أُمَّةً وَاحِدَةً، دِينُهَا: وَاحِدٌ، وَقِيلَتُهَا: وَاحِدَةٌ، وَلُغَتُهَا: وَاحِدَةٌ، وَمَقُومَاتُ شَخْصِيَّتِهَا: وَاحِدَةٌ، وَلِتَكُونَ أُمَّةً وَسَطًا، وَيَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ

(١) «الرسالة» للشافعي تحقيق أحمد شاكر (ص ٤١).

يدخل في هذه العصبية الإسلامية : فعليه أن يعتقد دينها ، ويتبع شريعته ، ويهتدي بهديها ، ويتعلم لغتها ، ويكون في ذلك كله كما قال الشافعي رضي الله عنه : **تَبَعًا لَا مُتَّبِعًا** ^(١) .

○ **فهذا هو الشافعي - رحمه الله - يذكر اتساع لسان العرب ؛ حتى ليستحيل أن يحيط بجميعه من ليس بنبي ، ولكنه كالشئ تنفرق عند العلماء بها ، ولكنها مجموعها عند مجموعهم ، وإذا أراد أحد أن يبحث عن سئة من الشئ : فإتما يبحث عنها في مظانها ؛ عند العلماء بها ، وليس عند غيرهم .**

وكذلك اللسان العربي : إذا عَزَبَ منه شيء عن بعض أهليه : وجد عند غيرهم ، ولكنه لا يُخطئ مجموعهم .

(١) « الرسالة » هامش (ص ٤٩) .

واللسان العربي مُتَّبَعٌ ، وأولى الناس بالفضل في اللسان : من لسانه لسان النبي ﷺ .

○ **ثم انظر كيف وجه الشافعي - رحمه الله - المسلم إلى أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده ، وأنه ما ازداد أحد من العلم باللسان إلا كان خيرًا له ، في الدنيا والآخرة .**

● **وأما القضية التي كان الشافعي - رحمه الله - يناقشها - وهي خلو القرآن من لفظ أعجمي - : فقد حكى السيوطي - رحمه الله - : إجماع الجمهور على ما قاله الشافعي ، ولا بأس من نقل ذلك ، وإن كانت هذه القضية ليست من صلب ما نحن بصدده .**

○ قال السيوطي - رحمه الله :

« قَالَ الْجَمْهُورُ :

ليس في كتاب الله - سبحانه - شيء بغير لغة العرب

لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف : ٣] .

وقوله تعالى : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ .

[الشعراء : ١٩٥]

وَادَّعى ناسٌ : أَنَّ في القرآن ما ليس بلغة العرب ،
حتى ذكروا لغة الروم والقبط والنبط .

قال أبو عبيدة : وَمَنْ زعم ذلك : فقد أَكْبَرَ القولَ «^(١)» .

● وَرَبَّمَا قَالَ قائلٌ :

ولكنَّ العرب الذين نزل القرآن في زمنهم ، وكانوا
من الفصاحة حيث ذكرت ، ومن الفهم للغية الكتاب
حيث ادَّعيت ، لم يُسَلِّمُوا !!

(١) « المنهر » للسيوطي (١/٢٦٦) .

فماذا نفعهم فهمهم ؟

وبماذا أفادتهم فصاحتهم ؟

أَمَّا نحن : فلا نفهم في كتاب الله شيئاً ، ولكننا -
والحمد لله - مسلمون ؛ نصلي ، ونحج البيت ،
ونصوم !

○ فاقول : إِنَّ تردِّي من لم يُسلم من العرب الذين
نزل القرآن في زمانهم في هُوة الكفر ، كانت له أسباب
كثيرة :

منها : العناد .

ومنها : الكِبَرُ .

ومنها : الحَسَدُ .

وامَّا القرآن ؛ فكانوا في إشفاف منه أبداً ، ويمنعهم
الكِبَرُ أن يُسلموا له ؛ لنزوله على مُحَمَّدٍ ؛ ولم يكن
فيهم ذا مال ، ولا طالب جاه ، ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا

الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْنَيْنِ عَظِيمٍ ﴿ [الزخرف : ٣١] ،
كما كانوا يتواصون بعدم سماعه فيما بينهم ، ﴿ وَقَالَ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ
تَغْلِبُونَ ﴾ . [فصلت : ٢٦] .

وهكذا ؛ ترى الحسد والكبر : دافعين من دوافع
الكفر وعدم التسليم .

○ ثم ؛ ما تقول في الذين أسلموا من أولئك
العرب ، فأصبحوا من صحابة رسول الله ﷺ ؛ كأبي
بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ، وأبي
عبدة ، وسعد ، وأضرابهم ؟؟ هل رأيتهم مرة يتمدحون
بعدم فهمهم لكتاب الله عز وجل ، أو يتفاخرون
بجهلهم به وقلة فقههم مقاصده ومراميه ؟؟

وهل يصح أن يتحوّل الإسلام إلى دين ذي طقوس
وشعائر تُمارس من غير فهم لمنهج ونظريته في الدنيا

والآخرة ، وكل ذلك في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه
ﷺ ، وهما ما يتمادح المتماذحون بالجهل بهما
والإعراض عنهما ؟؟

● وينبغي ان تعلم : أن عامة الخطأ في الدين ؛ إنما
يأتي من قلة الفهم لألفاظ الكتاب والسنة ؛ إذ إن
الدين : هو التسليم للكتاب على مراد الله تعالى ،
وللسنة على مراد النبي ﷺ ، ولكن يأتي آت : فيأخذ
الكتاب والسنة على مراد نفسه ، فيكون في ظاهر الأمر
آخذًا بالكتاب والسنة ، متشبثًا بالنص ، وهو في حقيقة
الأمر : مجافٍ للكتاب ، مجانبٌ للسنة ، موغلٌ في
البعد عن الصواب .

قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية - رحمه الله :
« لا بُدَّ في تفسير القرآن والحديث من أن يعرف ما
يدلُّ على مراد الله ورسوله من الألفاظ ، وكيف يفهم
كلامه .

فمعرفة العربية التي خُوطبنا بها : مما يعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه ، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني ، فإنَّ عامَّة ضلالِ أهل البدع : كان بهذا السبب ؛ فإنَّهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدَّعون أنَّه دالٌّ عليه ، ولا يكون الأمر كذلك»^(١).

○ **وكَلِّمَّا** كانت معرفة المسلم بألفاظ الكتاب والسنة تامةً ، كان فهمه لمراد الكتاب والسنة تامًا ، وإلَّا كان فيه من الزيغ عن الكتاب والسنة بقدر ما صرَّف أنماضهما إليه من عاداته واصطلاحه .

«ومن لم يعرف لغة الصحابة التي كانوا يتخاطبون بها ، ويخاطبهم بها النبي ﷺ ، وعاداتهم في الكلام ، وإلَّا خَرَفَ الكلم عن مواضعه .

(١) «الإيمان» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص ١١١) .

فإنَّ كثيرًا من النَّاسِ : ينشأ على اصطلاح قومه وعاداتهم في الألفاظ ، ثمَّ يجد تلك الألفاظ في كلام الله أو رسوله أو الصحابة ، **فيظنُّ** : أنَّ مراد الله أو رسوله أو الصحابة بتلك الألفاظ ما يريده بذلك أهل عاداته واصطلاحه ، ويكون مراد الله ورسوله والصحابة خلاف ذلك»^(١).



(١) «مجموعة فتاوى شيخ الإسلام» (١/٢٤٣) .

○ سَبِيلُ الْعِلْمِ الْحَقِّ ○

العلم الشرعي الحق: دينٌ يُعبدُ اللهَ عزَّ وجلَّ به ،
وَقُرْبَةً من أَجْلِ الْقُرْبَاتِ لَهُ .

وقد أخبر العلماء - رضوانُ الله عليهم - : أَنَّ هذا
العلمَ : دينٌ ، فينبغي تبعاً لذلك أن ينظرَ الآخِذُ عَمَّنْ
يأخذُ دينه ، وإلَّا كان كَحَاطِبِ لَيْلٍ رَجَا احتِمالَ حَزْمَةٍ
من حطَبٍ وبها ثعبانٌ يكمن في سَمِّهِ هلاكٌ حامِلِهِ .

أَخْرَجَ مُسْلِمٌ فِيهِ «صَحِيحُهُ» بِسَنَدِهِ عَنْ مُحَمَّدٍ
ابْنِ سَيِّيرٍ قَالَ :

«إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ ، فَانظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ»^(١)

○ وَيَبَيِّنُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ -
سَبِيلَ الْعِلْمِ الصَّحِيحِ فِي كَلِمَةِ جَامِعَةٍ يَقُولُ :

(١) «شرح النووي على صحيح مسلم» (١/٨٤).

«الْعِلْمُ يَحْتَاجُ إِلَى نَقْلِ مُصَدِّقٍ ، وَنَظَرٍ مُحَقِّقٍ»^(١)

وَيَبَيِّنُ ذَلِكَ بَيَانًا شَافِيًا فَيَقُولُ :

«الْمَنْقُولُ عَنِ السَّلَفِ وَالْعُلَمَاءِ : يَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَةٍ
بِثبُوتِ لَفْظِهِ وَمَعْرِفَةٍ دَلَالَتِهِ ، كَمَا يَحْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ
الْمَنْقُولُ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ»^(١) .

مَعْرِفَةُ دَلَالَةِ الْمَنْقُولِ الثَّابِتِ مَطْلُوبٌ ، وَإِلَّا غُطِّلَ النَّصُّ
عَنْ مَدْلُولِهِ ، أَوْ فَهِمَ عَلَى غَيْرِ وَجْهِهِ ، وَعُمِلَ عَلَى
مُقْتَضَى غَيْرِ دَلَالَتِهِ .



(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (١/٢٤٦).

○ تَعْلَمُ الْعَرَبِيَّةَ وَتُعَلِّمُهَا فَرَضٌ وَاجِبٌ ○

○ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - :

« مَعْلُومٌ ؛ أَنَّ تَعْلَمَ الْعَرَبِيَّةَ وَتُعَلِّمَ الْعَرَبِيَّةَ : فَرَضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ ؛ وَكَانَ السَّلَفُ يُؤَدِّبُونَ أَوْلَادَهُمْ عَلَى اللَّحْنِ . فَنَحْنُ مُأْمُورُونَ أَمْرٌ إِجْبَابٍ أَوْ أَمْرٌ اسْتِحْبَابٍ : أَنْ نَحْفَظَ الْقَانُونَ الْعَرَبِيَّ ، وَنُصْلِحَ الْأَلْسُنَ الْمَائِلَةَ عَنْهُ ، فَيَحْفَظَ لَنَا طَرِيقَةَ فَهْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَالْإِقْتِدَاءِ بِالْعَرَبِ فِي خُطَابِهَا . فَلَوْ تَرِكَ النَّاسُ عَلَى لَحْنِهِمْ كَانَ نَقْصًا وَعَيْبًا »^(١) .

○ وَنَقَلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ : كِرَاهَةً الرُّطَانَةِ ، وَتَسْمِيَةَ الشُّهُورِ بِالْأَسْمَاءِ الْأَعْجَمِيَّةِ .

وَالْوَجْهُ عِنْدَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ فِي ذَلِكَ :

(١) « مجموع فتاوى شيخ الإسلام » (٢٥٢/٣٢) .

« كِرَاهَةُ أَنْ يَتَعَوَّدَ الرَّجُلُ التَّنَطُّقَ بِغَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ » .

ثُمَّ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ :

« لِأَنَّ اللِّسَانَ الْعَرَبِيَّ شِعَارُ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِيهِ ، وَاللُّغَاتُ مِنْ أَعْظَمِ شِعَائِرِ الْأُمَمِ الَّتِي بِهَا يَتَمَيَّزُونَ »^(١) .

قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ :

« الرُّطَانَةُ : بَفَتْحِ الرَّاءِ وَكَسْرِهَا ، وَالتَّرَاطُطُ : كَلَامٌ لَا يَفْهَمُهُ الْجُمْهُورُ ، وَإِنَّمَا هُوَ مَوَاضِعَةٌ بَيْنَ اثْنَيْنِ أَوْ جَمَاعَةٍ ، وَالْعَرَبُ تَخْصُ بِهَا غَالِبًا كَلَامَ الْعَجَمِ »^(٢) .

○ وَإِذَا كَانَتِ اللُّغَاتُ مِنْ أَعْظَمِ شِعَائِرِ الْأُمَمِ الَّتِي بِهَا يَتَمَيَّزُونَ ، كَمَا قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ ؛ فَإِنَّ الْأُمَّةَ الْعَزِيزَةَ : تَعْتَزُّ بِلُغَتِهَا ، وَتَحْرِصُ عَلَى اسْتِقْلَالِهَا اللُّغَوِيِّ كَمَا تَحْرِصُ عَلَى اسْتِقْلَالِهَا الْعَسْكَرِيِّ

(١) « اقتضاء الصراط المستقيم » لابن تيمية (ص ٢٠٣) .

(٢) « النهاية في غريب الحديث » لابن الأثير (٢/٢٣٣) .

والاقتصادي سواء، وتحترم قوانينها اللغوية وتمسكُ بها، والأمة الدليّة: تفرطُ في لغتها، حتّى تصبح أجنبيةً عنها وهي منسوبةٌ إليها.

○ إلى مثل هذا المعنى أشار الكاتب الحجّة البليغ مصطفى صادق الرافعي - رحمه الله - في قوله :

« هل اعجب من أنّ المجمع العلمي الفرنسي يؤذّن في قومه بإبطال كلمة إنجليزية، كانت في الألسنة من أثر الحرب الكبرى، ويوجب إسقاطها من اللغة جملةً، وهي كلمة: « نظام الحصر البحري »، وكانت ممّا جاءت مع نكبات فرنسا في الحرب العظمي، فلمّا ذهبت تلك النكبات، رأى المجمع العلمي أنّ الكلمة وحدها نكبة على اللغة كأنّها جنديّ دولة أجنبية في أرض دولة مستقلة بشارته وسلاحه وعلمه يُعلن عن قهر أو غلبة أو استعباد !

وهل فعلوا ذلك ؛ إلّا أنّ التهاون يدعو بعضه إلى بعض، وأنّ الغفلة تبعث على ضعف الحفظ والتصوّن، وأنّ الاختلاط والاضطراب يجيء من الغفلة، والفساد يجتمع من الاختلاط والاضطراب .

إنّما الأمور بمقاييرها في ميزان الاصطلاح، لا بأوزانها في نفسها، فألف جنديّ أجنبيّ بأسلحتهم وذخيرتهم في أرض هالكة بأهلها ربّما كانوا غوثًا تفتّحت به السماء، ولكنّ جنديًا واحدًا من هؤلاء في أمة قوية مستقلة، تنشقّ له الأرض، وتكاد السماء أن تقع^(١).

○ وقال - رحمه الله - في موضع آخر :

« ما ذلّت لغة شعب إلّا ذلّ، ولا انحطت إلّا كان أمره في ذهاب وإدبار؛ ومن هذا يفرض الأجنبيّ المستعمر لغته فرضًا على الأمة المستعمرة، ويركبهم

(١) « تحت راية القرآن » للرافعي (ص ٢٥) .

بها، ويُشعرهم عَظَمَتَهُ فيها، وَيَسْتَلْحِثُهُمْ من ناحيتها؛
فيحكم عليهم أحكامًا ثلاثة في عملٍ واحدٍ :

أما الأولُ : فحبسُ لغتهم في لغتِهِ سجنًا مؤبدًا .

وأما الثاني : فالحكمُ على ماضيهم بالقتل محوًا
ونسيانًا .

وأما الثالثُ : فتقييدُ مستقبلهم في الأغلال التي
يصنعها، فأمرهم من بعدها لأمرِهِ تَبَعٌ^(١) .

● وقد مرَّ قولُ الشافعي - رحمه الله - :

إِنَّ الْمُسْلِمَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ تَبَعًا فِيمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ وَنُدِبَ
إِلَيْهِ ، لَا مَتَّبِعًا ؛ أَي : عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنْ لُغَةِ
الْعَرَبِ مَا يَكُونُ بِهِ عَلَى أَصْلٍ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ ،
لَأَنْ يَظَلَّ عَلَى لُغَتِهِ هُوَ أَوْ عُزُوفِ قَوْمِهِ وَاصْطِلَاحِهِمْ
وَلَهْجَتِهِمْ ، وَتَتَبِعَهُ لُغَةُ الْعَرَبِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْقُرْآنُ وَسُنَّةُ
النَّبِيِّ ﷺ فَيَكُونُ بِذَلِكَ مَتَّبِعًا .

(١) « وحي القلم » للرافعي (٣/٣٣) .

واعلم ؛ أَنَّ شَخْصِيَّةَ الْأُمَّةِ تَبْدُو جَلِيَّةً عِنْدَ اعْتِيَادِهَا
الْأَخْذَ بِلُغَةِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ ، وَأَنَّ تَرْكَ تِلْكَ اللُّغَةِ : مَضْيَعَةٌ
لِشَخْصِيَّةِ الْأُمَّةِ وَأُمَحَاءَ لَهَا ، وَذَوْبَانٌ لِتِلْكَ الشَّخْصِيَّةِ
فِي كَيَانِ الْأُمَمِ الَّتِي تَتَكَلَّمُ الْأُمَّةُ لِغَايَتِهَا ، فَإِنْ تَرَكْتَ الْأُمَّةَ
لُغَةَ الْكِتَابِ إِلَى غَيْرِ لُغَةٍ مِمَّا يَعْتَدُّ بِهِ ، فَاعْلَمْ أَنَّهَا أُصْبِحَتْ
أُمَّةً لَا شَخْصِيَّةَ لَهَا ، وَعَذَاهَا فِي الْمَوْتِ وَكَثُرَ عَلَيْهَا
أَرْبَعًا .

○ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ :

« **اعلم أن اعتياد اللغة :** يُؤَثِّرُ فِي الْعَقْلِ وَالْخُلُقِ
وَالدِّينِ ، تَأْتِيرًا قَوِيًّا بَيِّنًا ، وَيُؤَثِّرُ أَيْضًا فِي مِثَابَهَةِ صَدْرِ
هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ ، وَمِثَابَهَتِهِمْ : تَزِيدُ
الْعَقْلَ وَالدِّينَ وَالْخُلُقَ »^(١) .

(١) « اقتضاء الصراط المستقيم » (ص ٢٠٧) ،

○ وقال الرافعي - رحمه الله - :

«اللغة هي صورة وجود الأمة بأفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها، وجوداً متميزاً بخصائصه؛ فهي قومية الفكر، تتحد بها الأمة في صور التفكير وأساليب أخذ المعنى من المادة؛ والدقة في تركيب اللغة دليل على دقة الملكات في أهلها، وعمقها هو عمق الروح ودليل الحس على ميل الأمة إلى التفكير والبحث في الأسباب والعلل، وكثرة مشتقاتها برهان على نزعة الحرية وطماحها، فإن روح الاستعباد ضيق لا يتسع، ودأبه لزوم الكلمة والكلمات القليلة.

وإذا كانت اللغة هذه المنزلة، وكانت أمثها حريصة عليها، ناهضة بها، متسعة فيها، مكبرة شأنها، فما يأتي ذلك إلا من روح التسلط في شعبها والمطابقة بين طبيعته وعمل طبيعته، وكونه سيد أمره، ومحقق وجوده، ومستعمل قوته، والآخذ بحقه، فأما إذا كان

منه التراخي والإهمال وترك اللغة للطبيعة السوقية، وإصغار أمرها، وتهوين خطرها، وإثارة غيرها بالحب والإكبار، فهذا شعب: خادِم لا مخدوم، تابع لا متبوع، ضعيف عن تكاليف السيادة، لا يطيق أن يحمل عظمة ميراثه، مُجترئ ببعض حقه، مُكتفٍ بضرورات العيش، يوضع لحكمه القانون الذي أكثره للحرمان وأقله للفائدة التي هي كالحرمان.

لا جرم كانت لغة الأمة هي الهدف الأول للمستعمرين؛ فلن يتحول الشعب أول ما يتحول إلا من لغته، إذ يكون منشأ التحول من أفكاره وعواطفه وآماله، وهو إذا انقطع من نسب لغته انقطع من نسب ماضيه، فليس كاللغة نسب للعاطفة والفكر؛ حتى إن أبناء الأب الواحد لو اختلفت ألسنتهم فنشأ منهم ناشئ على لغة، ونشأ الثاني على أخرى، والثالث على لغة ثالثة، لكانوا في العاطفة كأبناء ثلاثة آباء»^(١).

(١) «وحي القلم» للرافعي (٣٢/٣).

○ وكان علماء الأُمَّة - رحمهم الله - في صدرها الأول على وعي كامل بأثر اللغة في تكوين الأُمَّة، وخطرهما في بناء شخصية المسلم؛ ولذلك حرصوا حرصاً شديداً على لغة القرآن والسنة، وشددوا النكير على مَنْ حادَ عنها إلى غيرها، واستبدلَ الذي هو أدنى بالذي هو خير.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -

قال الشافعي، فيما رواه السلفي بإسناد معروف إلى محمد بن عبد الحكم قال: سمعتُ محمد بن إدريس الشافعي يقول:

«سَمَى اللهُ الذَّاهِبِينَ مِنْ فَضْلِهِ فِي الشَّرَاءِ وَالْبَيْعِ: تَجَارًا، وَلَمْ تَزَلِ الْعَرَبُ تَسْمِيهِمُ التَّجَارَ، ثُمَّ سَمَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا سَمَى اللهُ بِهِ مِنَ التَّجَارَةِ بِلِسَانِ الْعَرَبِ، وَالسَّماسرةُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الْعَجَمِ، فَلَا نَحِبُ أَنْ يُسَمِّيَ رَجُلٌ يَعْرِفُ الْعَرَبِيَّةَ تَاجِرًا إِلَّا تَاجِرًا، وَلَا يَنْطِقُ

بالعربية فيسمِّي شيئًا بالعجمية؛ وذلك أَنَّ اللِّسَانَ الَّذِي اخْتَارَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِسَانَ الْعَرَبِ فَأَنْزَلَ بِهِ كِتَابَهُ الْعَزِيزَ، وَجَعَلَهُ لِسَانَ خَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

ولهذا نقول: ينبغي لكلِّ أحدٍ يقدِّرُ على تعلُّمِ العربية: أن يتعلَّمَهَا؛ لأنها اللِّسَانُ الْأَوَّلِيُّ بأن يكون مرغوبًا فيه، من غير أن يُحَرِّمَ على أحدٍ أن ينطق بالعجمية.

قال شيخ الإسلام:

فقد كره الشافعي لِمَنْ يَعْرِفُ الْعَرَبِيَّةَ أَنْ يَسْمِيَ بِغَيْرِهَا، وَأَنْ يَتَكَلَّمَ بِهَا خَالِطًا لَهَا بِالْعَجْمِيَّةِ، وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ، قَالَهُ الْأُئِمَّةُ مَأْثُورًا عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ^(١).

وقال - رحمه الله - في موضع آخر:

«وما زال السَّلَفُ يكرهون تغييرَ شعائرِ العربِ حتَّى

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص ٢٠٤).

في المعاملات، وهو « **التكلم بغير العربية** » إلا
لحاجة، كما نصَّ على ذلك مالك والشافعي وأحمد؛
بل قال مالك: مَنْ تكلم في مسجدنا بغير العربية:
أُخرج منه.

مع أن سائر الألسن يجوزُ التُّطُقُّ بها لأصحابها،
ولكن سَوَّغوها للحاجة، وكرهوها لغير الحاجة، ولحفظ
الإسلام.

فإنَّ اللهَ أنزَلَ كتابَه باللسانِ العربيِّ، وبعثَ به نبيَّه
العربيَّ، وجعلَ الأُمَّةَ العربيَّةَ خيرَ الأُممِ، فصارَ حِفْظُ
شعارِهِم من تمامِ حفظِ الإسلامِ، فكيفَ بمَنْ تقدَّمَ على
الكلامِ العربيِّ - مفردَه ومنظومَه - يغيِّرُه ويبدِّلُه،
ويخرِجُه عن قانونيهِ، ويكلفُ الانتقالَ عنه؟! «^(١)».

ولم يكن العربُ عندما يفتحون بلدًا من البلدان
يتركون لسانَهُم ولسانَ قرآنِهِم من أجلِ لسانِ أحدٍ،

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٢٥٥/٣٢).

وإنَّما تغلبَ العربيَّةُ على أهلِ المَصرِ المفتوحِ حتَّى تُطبقَ
عليه، ويكرهه المسلمون أشدَّ الكُرهِ أن تتفشَّى فيهم
العجمةُ والرَّطانةُ البعيدتان عن لغةِ الكتابِ وأهلِهِ.

قال شيخ الإسلام :

« واعتيادُ الخطابِ بغيرِ العربيَّةِ التي هي شعارُ الإسلامِ
ولغةُ القرآنِ، حتَّى يصيرَ ذلكَ عادةً للمَصرِ وأهلِهِ،
ولأهلِ الدَّارِ، وللرجلِ مع صاحِبِهِ، ولأهلِ الشُّوقِ، أو
للأُمراءِ، أو لأهلِ الديوانِ، أو لأهلِ الفقه: فلا ريبَ أنَّ
هذا مكروهٌ؛ فإنَّه من التشبُّهِ بالأعاجِمِ.

ولهذا: كان المسلمون المتقدمون، لمَّا سكنوا أرضَ
الشامِ ومصرَ، ولغةُ أهلِهما روميَّةً، وأرضَ العراقِ
وخراسانَ، ولغةُ أهلِهما فارسيَّةً، وأرضَ المغربِ، ولغةُ
أهلِها بربريَّةٌ: **عَدُّوا أهلَ هذه البلادِ العربيَّةَ**، حتَّى
غلبت على أهلِ هذه الأمصارِ: مسلميهم وكافريهم،
وهكذا كانت خراسانُ قديمًا.

ثم انهم - أي : المسلمين - تساهلوا في أمر اللغة ، واعتادوا الخطاب بالفارسية ، حتى غلبت عليهم ، وصارت العربية مهجورة عند كثير منهم ، **ولا ريب أن هذا مكروه .**

وإنما الطريق الحسن : اعتياد الخطاب بالعربية ، حتى يتلقنوها الصغار في الدور والمكاتب ؛ **فيظهر شعائر الإسلام واهله** ، ويكون ذلك أسهل على أهل الإسلام في فقه معاني الكتاب والسنة وكلام السلف ، بخلاف من اعتاد لغة ثم أراد أن ينتقل إلى أخرى فإنه يصعب عليه ^(١) .

○ ويدلُّك على اكتساح العربية لغات البلاد المفتوحة - غير ما ذكره شيخ الإسلام رحمه الله فيما تقدّم - تلك الأئمة الشاكية التي كتبها « ألفارو » مطران « قرطبة » إلى أحد أصدقائه عام أربع وخمسين وثمانمائة من

(١) « اقتضاء الصراط المستقيم » (ص ٢٠٦) .

الميلاد ، يصف فيها حال اللغة العربية مع لغة كتابه المقدس ، زعم ، وكيف تحول أتباعه ، وأتباع كتابه بالأمس ، إلى لغة القرآن المجيد ، ولم يكن قد مضى على فتح الأندلس غير مائة وأربعين عامًا عندما كتب تلك الرسالة الشاكية .

كتب « ألفارو » مطران « قرطبة » عام أربع وخمسين وثمانمائة للميلاد إلى أحد أصدقائه يقول :

« من الذي يعكف اليوم بين أتباعنا من المؤمنين على دراسة الكتب المقدسة ، أو يرجع إلى كتاب أي عالم من علمائها ، ممن كتبوا في اللغة اللاتينية ؟ من منهم يدرس الإنجيل أو الأنبياء أو الرُّسل ؟

إننا لا نرى غير شبان مسيحيين هاموا حبًا باللغة العربية ، يبحثون عن كتبها ويقتنونها ، ويدرسونها في شغف ، ويعلقون عليها ، ويتحدثون بها في طلاقة ، ويكتبون بها في جمالي وبلاغة ، ويقولون فيها الشعر في

رَقَّةً وَأَنَاقَةً، يَا لِلْحُزَنِ! مَسِيحِيُونَ يَجْهَلُونَ كِتَابَهُمْ
وَقَانُونَهُمْ وَلَا تَنْتَبِهُهُمْ، وَيَنْسَوْنَ لِفَتْهُمْ نَفْسَهَا، وَلَا يَكَادُ
الوَاحِدُ مِنْهُمْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكْتُبَ رِسَالَةً مَعْقُولَةً لِأَخِيهِ
مُسْلِمًا عَلَيْهِ، وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَجِدَ جَمْعًا لَا يُحْصَى يُظْهَرُ
تَفُوقُهُ وَقُدْرَتُهُ وَتَمَكُّنُهُ مِنَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ» .

○ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ سَيِّدَةُ اللُّغَاتِ ○

وَلَا تَحْسَبَنَّ قَوْلَ هَذَا «أَلْفَارُو» دَالًّا عَلَى فَرَضِ الْعَرَبِ
الْمُسْلِمِينَ لِفَتْهُمْ عَلَى الشُّعُوبِ الْمَفْتُوحَةِ، بَلْ كَلَامُهُ يَدُلُّ
عَلَى ضِدِّ هَذَا الْحِسَابِ، حَيْثُ ذَكَرَ أَنَّ الشُّبَّانَ الَّذِينَ
انْصَرَفُوا إِلَى الْعَرَبِيَّةِ - شَعْرًا وَنَثْرًا - ظَلُّوا عَلَى دِينِهِمْ
وَلَمْ يَفَارِقُوهُ، وَهَذِهِ وَإِنْ كَانَتْ أُمُّ النِّقَائِصِ فِيهِمْ، إِلَّا
أَنَّهَا تَدُلُّ دَلَالَةً قَاطِعَةً عَلَى أَنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ إِذَا خُلِّيَ بَيْنَهَا
وَبَيْنَ النَّاسِ، اكْتَسَحَتْ جَمِيعَ مَا يَعْتَرِضُ طَرِيقَهَا مِنْ
لُغَاتٍ .

وَأَمَّا عَدَمُ إِسْلَامِ أَوْلَئِكَ الشُّبَّانِ الْمَذْكُورِينَ وَأَمْثَالِهِمْ
مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ، فَلَهُ أَسْبَابٌ تُطْلَبُ مِنْ مَظَانِّهَا فِي
تَارِيخِ انْتِشَارِ الْإِسْلَامِ فِي الْأَنْدَلُسِ، ثُمَّ انْحِسَارِ مَوْجِ
الْمُسْلِمِينَ عَنْ ذَلِكَ الْقَطْرِ الضَّائِعِ السَّالِبِ .

○ أَمَّا سَيَادَةُ هَذِهِ اللُّغَةِ لُغَاتِ الْعَالَمِ كُلِّهِ؛ فَذَلِكَ لِأَنَّ
الْكِتَابَ الْخَاتَمَ نَزَلَ بِهَا، وَتَكَفَّلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِحِفْظِهِ .
فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ
لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فَهِيَ لُغَةٌ مَحْفُوظَةٌ .

وَقَدْ قَرَّرَ عُلَمَاءُ اللُّغَةِ الْمُخَذِّثُونَ :

أَنَّ اللُّغَاتِ الَّتِي يَظُنُّ بِهَا السِّيَادَةُ الْيَوْمَ: لَا تَمْلِكُ أَنْ
تَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهَا عَادِيَةَ التَّغْيِيرِ حَتَّى تَصِيرَ كَأَنَّهَا لُغَةٌ
جَدِيدَةٌ، وَأَنَّ أَقْصَى عَمْرِى لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ الْحَيَّةِ
الْمُعَاصِرَةِ هُوَ: قَرْنَانِ مِنَ الزَّمَانِ .

أَمَّا الْعَرَبِيَّةُ: فَارْتَبَاطُهَا بِ«الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ»: جَعَلَ
لَهَا ظَرْفًا خَاصًّا لَمْ يُنْخَعْ لِأَيِّ مِنَ لُغَاتِ الْعَالَمِ كُلِّهَا .

● وهنا ؛ كلام عالم من أهل الذكر في هذا الشأن ،
هو أستاذنا الدكتور رمضان عبد التواب يقول :

« للعربية الفصحى ظرفٌ خاصٌّ ، لم يتوفَّر لأية
لغةٍ من لغاتِ العالمِ ، وهذا الظرفُ يجعلنا نرفضُ ما
ينادي به بعضُ الغافلين والمغرضين ، من تركِ الجبلِ على
الغاربِ للعربيةِ الفصحى ، لكي تتفاعلَ مع العامِّيَّاتِ ،
تأخذُ منها وتُعطي ، كما يحدثُ في اللغاتِ كُلِّها ..

غير أنَّ العربيةَ الفصحى ، لها - كما قلنا - ظرفٌ
لم يتوفَّر لأية لغةٍ من لغاتِ العالمِ ، ذلك ؛ أنَّها ارتبطت
بـ « القرآن الكريم » ، منذ أربعة عشر قرناً ، ودُّونَ بها
التراثُ العربيُّ الضخمُ ، الذي كان محورُهُ هو القرآنُ
الكريمُ في كثيرٍ من مظاهرِهِ .

وقد كفلَ اللهُ لها الحفظَ ما دام يحفظُ دينه ، فقالَ عزَّ
وجلَّ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

ولولا أن شَرَّفَهَا اللهُ عزَّ وجلَّ ، فأنزلَ بها كتابه ،
وقيضَ له من خلقِهِ مَنْ يتلوه صباحَ مساءً ، ووعدَ
بحفظِهِ على تعاقبِ الأزمانِ - لولا كلُّ هذا : لأُمت
العربيةُ الفصحى لغةً أثريةً ، تشبه اللاتينية أو
السنسكريتية ، ولسادت اللهجاتُ العربيةُ المختلفةُ ، في
نواحي الأرضِ العربيةِ ، وازدادت على مرِّ الزمانِ بُعْداً
عن الأصلِ الذي انسلختُ منه .

هذا هو السرُّ الذي يجعلنا لا نقيس العربيةَ الفصحى ،
بما يحدثُ في اللغاتِ الحيَّةِ المعاصرة ، فإنَّ أقصى عمرٍ
هذه اللغاتِ ، في شكلِها الحاضرِ ، لا يتعدى قرنين من
الزمانِ ، فهي دائمةُ التطوُّرِ والتغيُّرِ ، وعرضةٌ للتفاعلِ مع
اللغاتِ المجاورة ، تأخذُ منها وتُعطي ، ولا تجدُ في كلِّ
ذلك حرجاً ؛ لأنَّها لم ترتبط في فترةٍ من فتراتِ حياتِها
بكتابِ كريمٍ ، كما هي الحالُ في العربيةِ » (١) .

(١) « فصول في فقه العربية » للدكتور رمضان عبد التواب (ص ٤١٤) .

○ **ومما لا شك فيه** ؛ أنَّ للبيئة أثراً غير منكور في لسان أهلها ، كما أنَّ لها أثراً في طبائعهم وعاداتهم ، وقد لحظ ذلك قدامى نقاد العرب .

فقال القاضي الجرجاني :

« سلامة اللفظ : تتبع سلامة الطبع ، ودَّمَائَةُ الكلام : بقدر دَّمَائَةِ الخِلقة ، وأنت تجد ذلك ظاهراً في أهل عصرِكَ وأبناء زمانك ، وترى الجافي الجلف منهم : كَرَّ الألفاظ ، معقَّد الكلام ، وعَزَّ الخطاب ؛ حتَّى إنَّكَ ربَّما وجدت ألفاظه في صوته ونغمته ، وفي جرسه ولهجته ، ومن شأن البداوة أن تُحدِث بعض ذلك ؛ ولأجله قال النبي ﷺ : « مَنْ بَدَا جَفاً »^(١) ، ولذلك تجد شعراً عديّ - وهو جاهلي - أسلس من : شعر الفرزدق ،

(١) أخرجه أحمد وابن عدي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ بَدَا جَفاً ، وَمِنْ أَتْبَعَ الطَّيِّدَ غَفْلَ ، وَمَنْ أَتَى أَبْوَابَ الشُّلْطَانِ افْتَتَرَ ، وَمَا أَزْدَادَ أَحَدٌ مِنَ الشُّلْطَانِ قُرْباً إِلَّا أَزْدَادَ مِنَ اللَّهِ بُعْداً » [انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ١٢٧٢] .

ورجَزُ رُؤْيَا ، وهما أهْلان ؛ لملازمة عِدْيِ الحاضرة وإيطائه الريف ، ويُعْده عن جلافة البَدُو وجفاء الأعراب »^(١) .

○ وقد خَصَّ الله عزَّ وجلَّ أولئك العرب الذين حَفُّوا بالبيت العتيق بالحرية التامة الخالصة ، فلم يعرفوا عبودية لبشر .

يقول هزدر : « يظهر أنَّ جزيرة العرب - وهي من بقاع الدنيا الممتازة - : قد أعدتها الطبيعة - كذا - لِتَهَبَ لشعوبها خلقاً خاصاً ، فكأنَّ البادية الكبرى التي تمتدُّ بين مصرَ وسوريةَ ومن حلبَ إلى الفراتِ قُطْرَ تَرِيٍّ جنوبِيٍّ ، فما فتئ هذا القُطْرُ ، الذي هو مجالٌ واسعٌ لقبائل من الأعراب والرعاة الرُحَّل ، يكون قبضةً عربٍ متنقلين منذ أحقاب ، فطراز حياة هؤلاء القوم ، الذين يُعدُّون المِصرَ سجناً ، يقضي بقيام فخرهم على قَدَمِ

(١) « الوساطة بين المتنبي وخصومه » للقاضي الجرجاني (ص ١٨) .

عرقهم وباعتمادهم على ربهم ، وعلى غنى لغتهم
وشعرهم ، وعلى رشاقة خيولهم ، وعلى لمعان سيوفهم ،
وعلى جزارهم التي يعتقدون أنها أمانة في أيديهم ،
فيمكنكم أن تقولوا ، والحالة هذه ، إن جميع هذه
الأمر قد هيأتهم منذ زمن بعيد للدور الذي يمثلونه ذات
يوم في أجزاء العالم الثلاثة ، ولكن على وجه يخالف
شأن تتر الشمال مخالفة تامة^(١) .

هذه الحرية التي عاشها العرب ، الذين نزل القرآن
بلغتهم ، حول البيت العتيق كان لها أثر في لغتهم من
غير شك ، حتى تستطيع القول : إن لغتهم هي لغة
الحرية ، وقد مر قول الراعي - رحمه الله - : وكثرة
مشتقاتها - أي : اللغة العربية - : برهان على نزعة
الحرية وطماحها ، فإن روح الاستبعاد ضيق لا يتسع ،
ودأبه لزوم الكلمة والكلمات القليلة .

(١) « تاريخ العرب العام » لسيدو ترجمة عادل زعير (ص ٢٦) .

○ وهنا قول الأستاذ محمود شاعر :

« إني أرى اللجوء إلى « الرمز » ، ضرباً من الجبن
اللغوي !! فاللغة إذا اتسمت بسمة الجبن كثر فيها
الرمز » وقل فيها الإقدام على التعبير الواضح المفصح .
ولا تقل إن « الكناية » شبيهة بـ « الرمز » ، فهذا
باطل من قبل الدراسة الصحيحة لطبيعة « الرمز »
وطبيعة « الكناية » و « المجاز » .

وأنا أستكف من « الرمز » في العربية ، لأن للعربية
شجاعة صادقة في تعبيرها ، وفي اشتقاقها ، وفي تكوين
أحرفها ، ليست للغة أخرى^(١)

○ وقد خص الله عز وجل أولئك العرب بالفضل ،
« وسبب ما اختصوا به من الفضل - والله أعلم - : ما
جعل الله لهم من العقول والألسنة والأخلاق
والأعمال .

(١) « أباطيل وأسار » للأستاذ محمود شاعر (ص ٤٣٥) .

وذلك ؛ أَنَّ الفضلَ إمَّا بالعلمِ النافعِ أو العملِ الصالحِ ، والعلمُ له مبدأٌ : وهو قوَّةُ العقلِ الذي هو الفهمُ والحفظُ ، وتَمَامٌ : وهو قوَّةُ المنطقِ الذي هو البيانُ والعبارة .

فالعربُ ؛ هم أفهمُ وأحفظُ ، وأقدرُ على البيانِ والعبارة ، ولسانُهم أتمُّ الألسنةِ بيانًا وتمييزًا للمعاني .

وأما العملُ : فَإِنَّ مبناه على الأخلاقِ ، وهي الغرائزُ المخلوقةُ في النفسِ ؛ فغرائزهم أطوعُ من غرائزِ غيرهم ، فهم أقربُ إلى السخاءِ والحلمِ والشجاعةِ والوفاءِ من غيرهم ، ولكن حازوا قبلَ الإسلامِ طبيعةً قابلةً للخيرِ معطلةً عن فعلِهِ ، ليس عندهم علمٌ منزلٌ ولا شريعةٌ مأثورةٌ ولا اشتغلوا ببعضِ العلومِ ، بخلافِ غيرهم : فَإِنَّهم كانت بين أظهرِهِم الكتبُ المنزلةُ وأقوالُ الأنبياءِ ، فضلوا ؛ لضعفِ عقولهم وحُبِّ غرائزهم .

وإنما كان علمُ العربِ : ما سمحت به قرائحُهم من الشعرِ والخطبِ ، أو ما حفظوه من أنسابهم وأيامهم ، أو ما احتاجوا إليه في دنياهم من الأنواءِ والنجومِ والحروبِ ، فلمَّا بعثَ اللهُ **محمدًا** ﷺ بالهدى تلقَّوه عنه بعد مجاهدةٍ شديدةٍ ، ونقلهم اللهُ عن تلك العاداتِ الجاهليةِ التي كانت قد أحالتْ قلوبهم عن فطريتها ، فلمَّا تلقَّوا عنه ذلك الهدى زالت تلك الرِّيُونُ عن قلوبهم ، فقبلوا هذا الهدى العظيم ، وأخذوه بتلك الفطرةِ الجديدةِ ، فاجتمع لهم الكمالُ بالقوَّةِ المخلوقةِ فيهم ، والكمالُ الذي أنزله اللهُ إليهم ، بمنزلةِ أرضٍ طيبةٍ في نفسها ، لكن هي معطلةٌ عن الحرثِ ، أو قد نبتَ فيها شجرٌ « العُصاة » و « العوسج » ، وصارت مأوى الخنازيرِ والسُّباعِ ، فإذا طَهُرَتْ عن ذلك المؤذي من الشجرِ وغيره من الدوابِّ ، وازدُرِعَ فيها أفضلُ الحبوبِ أو الثمارِ جاء فيها من الحَبِّ والتمرِ ما لا يُوصفُ مثله .

فصار السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أفضل
خَلَقَ اللَّهُ سِوَى الْأَنْبِيَاءِ، وصار أفضل النَّاسِ بعدهم مَنْ
اتَّبَعَهُمْ بِإِحْسَانٍ - رضي اللَّهُ عنهم - إلى يوم القيامة من
العربِ والعجمِ»^(١).

○ ولَمَّا كَانَ: «(البيان)؛ هو نعمة الله الكبرى
التي أنعم بها على عباده من كل جنس ولون،
وكذلك عَلَّمَنَا رَبُّنَا سُبْحَانَهُ إِذْ قَالَ: ﴿الرَّخْمَنُ * عَلَّمَ
الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ النَّبَاتَ﴾ [الرحمن: ١-٤]،
فَمَنْ اسْتَهَانَ بِالْكَلِمَةِ: فقد استهانَ بأفضلِ آلاءِ اللَّهِ على
عباده، وبالنعمةِ الكبرى التي أخرجته من حَدِّْ البهيمةِ
العجماءِ إلى حَدِّْ الْإِنْسَانِ النَّاطِقِ»^(٢).

لَمَّا كَانَ «البيان» و «الكلمة» بهذه المثابة؛ فقد
أنعمَ اللَّهُ على العربيةِ بخاصةِ «الإبانة» أو خاصةِ

(١) «جامع الرسائل لابن تيمية» ت الدكتور رشاد سالم، المجموعة الأولى
(ص ٢٨٩).

(٢) «أباطيل وأسمار» لمحمد شاكر (ص ٥٦٢).

«التعبير»، أجلُّ ما يكون الإنعام، فهي لغةٌ مُعَبَّرَةٌ.

«وليس من الغلَّة في وَصْفِ اللغةِ المعْبَرَةِ أن
يقال: إِنَّكَ تَضَعُ مُعْجَمَهَا بين يديكَ، فكأنَّما قد
وضعتَ أمامَكَ قواعدَ تاريخها ومعالمَ بيئتها، ولم تدع
لمراجعِ التاريخِ والجغرافيةِ غيرَ تفصيلاتِ الأسماءِ
والأيامِ».

و «اللغة العربية» في طليعة اللغاتِ المعْبَرَةِ بين
لغاتِ العالمِ الشرقيَّة والغربيَّة، فلا يعرف علماء اللغاتِ
لغةَ قومٍ تتراءى لنا صفاتُهُم وصفاتُ أوطانهم من
كلماتِهِم وألفاظِهِم كما تتراءى أطوارُ المجتمعِ العربيِّ من
مادَّةِ ألفاظِهِ ومفرداتِهِ في أسلوبِ الواقعِ وأسلوبِ
المجازِ»^(١).



(١) «اللغة الشاعرة» للعقاد (ص ٧١).

اللغة العربية لغة سفلة

قام الصراع بين الإسلام من جانب، والتحل الفاسدة والملل الكافرة من جانب آخر، منذ اليوم الأول الذي صدع فيه النبي ﷺ بأمر ربّه في تبليغ رسالته، ثم لم يزل يشتد إلى يوم الناس هذا.

وكان أهم ميدان من ميادين الصراع بين الإسلام وحصومه - هو «اللغة العربية» نفسها، لغة «القرآن» العظيم، ولغة النبي الكريم ﷺ.

حتى إنه كان في منتصف القرن الماضي من يدعو إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية^(١)، ومن عجب؛ أنه كان يدّعي أنه يريد المحافظة على الفصحى!

ورد الشيخ أحمد شاکر قائلاً:

«ما أظن عاقلاً يُخدع بعد ذلك فيصدق الباشا في

(١) هو عبد العزيز فهمي باشا!!

ادّعائه: أنه يريد المحافظة على العربية الفصحى، وهو يسخط عليها كل هذا الشحط، ويندّد بها كل هذا التنديد، بل يندّد بالأهم المنفصلة سياسيًا أن لم يندّر بخلب أحد من أهلها أن يجعل من لهجته لغة قائمة بذاتها لها نحوها وصرفها!!

فإن لم تكن هذه دعوة صريحة إلى تمزيق العربية إلى لغات عدّة - كما فعل الفرنسيون والإيطاليون والأسباب - فما ندري كيف تكون الدعوة، بل لا يدري أحد من الناس^(١)!

وكانت الدعوة إلى العامية قد ظهرت كالزجس النجس، وتولّى كبرها أحمد لطفي السيد؛ فدعا إلى تمصير اللغة وإلى كثير من الهراء تعرفه متى طالعت كتاب الأستاذ محمود شاکر «أباطيل وأسمار» في المقالة الحادية عشرة ومواضع أخر في هذا الكتاب

(١) «الشرع واللغة» لأحمد محمد شاکر (ص ٥٥).

الجليل، وأيضاً تتضح لك ضرورة الدعوة إلى العامية وتاريخها في كتاب «تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر»، للدكتورة نفوسة زكريا سعيد، وهو الكتاب الذي قال عنه الأستاذ محمود شاكر: «لو كان لي من الأمر شيء؛ لأمرث أن يُطبع هذا الكتاب ليكون في يد كل شاب وشابة، وكل رجل وامرأة، ويكون له مختصرٌ ميسرٌ لكل من مكَّنه الله من القراءة»^(١).

«والعامية ظاهرة في كل اللغات، وهي لازمت العربية منذ أقدم عصورها دون أن ترحلها عن ميدانها الأدبي، وكان اهتمام العلماء القدامى بدراستها جزءاً من اهتمامهم بالفصحى.

لكن هذه الظاهرة - اي: وجود الفصحى والعامية في اللغة العربية - : اعتُبرت في عصرنا مشكلة؛ أرجع إليها أسباب تأخر أبناء العربية، واقتُرح حلُّها: اتخاذ

(١) «أباطيل وأسما» لمحمود محمد شاكر (ص ١٥٤).

العامية لغةً للأدب والكتابة حتى تكون لنا لغةً واحدةً للحديث والكتابة.

قد تبدو هذه الدعوة غريبةً في ذلك العصر؛ الذي نعتبره: عصر إحياء اللغة العربية، والذي نرى فيه القومية العربية [كذا] تزداد تماسكاً وترابطاً.

ولكن هذه الغرابة لا تلبث أن تزول عندما نعرف أن مصدر هذه الدعوة اجنبي، كما اتضح لي من دراسة الكتب الأجنبية التي تناولت دراسة اللهجة المصرية، وخاصة ما كان منها في أوائل عهد الاحتلال البريطاني في مصر»^(١).

○ وضعت تلك الدعوات وليد سؤنها، واستقر في الأذهان أن العربية لغة صعبة، وعلى وجه التحديد نحوها وصرفها.

(١) «تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر» للدكتورة نفوسة زكريا سعيد (ص ٨).

وليس من شك؛ أنَّ قواعدَ اللغة قد صيغت في بعض جوانبها صياغةً عسيرةً على الفهم، ولكنَّ الحملَ على الفصحى بالصعوبة والشذوذ دون لغاتِ العالمين أمرٌ لا يخفى ما فيه من الحيف والجور، بل غيرها من اللغاتِ أعرق في الصعوبة منها، وأمعن في العُسر منها، ثمَّ إذا كان هناك عُسرٌ فلندعُ إلى التيسير لا إلى الهَجْر أو التغيير!

قال الأستاذ عبد السلام هارون - رحمه الله - :

« ليس معنى تيسير النحو أن نقضي على قواعده الأساسية، وعلى اصطلاحات جمهور النحاة التي تشرَّبَتها الأجيالُ وسَرَّت في العروقِ والدماءِ، أعني عروق التراثِ الإسلاميِّ ودماء الثقافة العربية، فالترابطُ وثيقٌ شديدٌ الصَّلَة بين علمِ النحو، والبلاغة، والتفسير، والحديث، والفقهِ الإسلاميِّ، ونصوصِ الأدب العربيِّ؛ جاهلية وإسلامية، وبين كثيرٍ غيرها من فروع الثقافة العربية ..

إننا ننادي بتيسيرِ النحو، وبتيسيرِ غيرِ النحو، بل بتيسيرِ كلِّ صعبٍ في هذا الوجود، ولكنَّا لا نغفرُ: أن تُمسَّ أصولُ العربية؛ استنادًا إلى آراءِ بعضِ شذاذِ النحويين، وارتكانًا إلى آراءِ فردية لا تُتمُّ إلى مدارِ س ذاتِ قَدَرٍ موزون»^(١).

● وليست العربية يدعًا؛ في صعوبة نحوها ووصفها، ويبيِّن هذا عالمٌ من أهلِ الذكرِ درسَ إلى العربية غيرها من لغاتِ الشرق والغرب، وحُكمه في ذلك لا شك في عدليه وإنصافه.

يقول استاذنا الدكتور رمضان عبد التواب :

« يسودُ بين جمهرة المثقفين العرب، شعورٌ مدمرٌ بأنَّ لغتناَ الجميلةَ العربيةَ الفصحى، لغةٌ معقَّدة القواعد، صعبةُ التعليم، كثيرةُ الشذوذ في مسائلها وقضاياها،

(١) «قطوف أدبية» لعبد السلام هارون (ص ١٤٩).

بحيث تجعل من تعلمها، أو استخدامها والتحدث بها، عبئاً ثقيلاً على أهلها.

ولقد انتهز المغرضون هذه الفرصة، وأخذوا يصيدون في الماء العكر، ويدعون إلى استخدام العامية، وهجر الفصحى أو خلطها بالعامية، وهي دعوة حمل لواءها منذ فترة طويلة، المعادون للإسلام وأهله؛ فادَّعَوْا أَنَّ إعراب العربية الفصحى، أمرٌ عسيرٌ التعليم، ليصرفوا المسلمين عن منبع دينهم، وعماد شريعتهم، ودستور حياتهم، وهو القرآن الكريم، الذي أنزله الله عز وجل، بهذه العربية الفصحى.

والحق؛ أَنَّ هذا الإعراب، الذي يوصف بأنه معقّد وصعب، لا تنفرُ به العربية الفصحى وحدها، بل إنَّ هناك لغات كثيرة، لا تزال تحيا بيننا، وفيها من ظواهر الإعراب المعقّد، ما يفوق إعراب العربية بكثير.

فهذه هي اللغة الألمانية مثلاً، تقسم أسماءها اعتباراً إلى مذكر ومؤنث، وجنس ثالث لا تعرفه العربية، وهو «المحايد»، وتضع لكل واحد من هذه الأجناس الثلاثة، أربع حالات إعرابية، هي حالات: الفاعلية، والمفعولية، والإضافة، والقابلية.

وهذه الحالة الأخيرة، لا تعرفها العربية، وهي إعراب المفعول الثاني، فهي من حالات المفعولية في العربية، وليست حالة خاصة فيها. تلك هي حالات إعراب الاسم المفرد المعرّف في الألمانية. والمفرد المنكّر له أربع حالات أخرى، وكذلك الجمع المعرّف والجمع المنكّر.

وبناء الجملة في اللغة الألمانية، له نظام صارم؛ فالفعل يحتل فيها المرتبة الثانية دائماً، إلّا في الجمل الفرعية؛ كالجمل التعليلية مثلاً، فإنّ الفعل يؤخّر فيها إلى نهاية الجملة. وإنّ من يشكو من كثرة جموع التكسير في العربية، وغلبة الشذوذ على قواعد هذا

الجمع فيها، سيحمد للعربية الاطراد النسبي في هذه القواعد، إذا دَرَسَ اللغة الألمانية، ورأى كثرة صيغ هذه الجموع فيها، وفقدان القاعدة التي تخضع لها تمامًا، إلى درجة أن كل كتاب في تعليم قواعد الألمانية، تبدأ صفحاته الأولى بهذه العبارة: «احفظ مع كل اسم، أداة تعريفه، وصيغة جمعه؛ لأنه ليست هناك قاعدة لذلك».

فليست العربية - إذن - بذعا بين اللغات، في صعوبة القواعد، غير أن شيئاً من هذه الصعوبة، يعود بالتأكيد إلى طريقة عرض النحويين لقواعدها؛ فقد خلطوا في هذه القواعد بين الواقع اللغوي والمنطقي العقلي، وبعدوا عن وصف هذا الواقع إلى المماحيكات اللفظية، وامتلات كتبهم بالجدل والخلافات العظيمة؛ فضل المتعلم وُسْطَ هذا الركام الهائل من الآراء، المتناقضة في بعض الأحيان.

والحقيقة؛ أن القواعد الأساسية، لنحو اللغة العربية، يمكن أن تُستخلص في صفحات قليلة، مُصَفَّاة من هذا الحشو، الذي لا طائل وراءه»^(١).

○ اعترض مدقوع ○

عقد الخطيب البغدادي - رحمه الله - في «اقتضاء العلم العمل» باباً في: «من كره تعلّم النحو لما يُكسب من الخيلاء والزهو»، ساق فيه: أقوالاً في **دَمّ تعلّم النحو**، مدارها على الزهاد والنسّاك، من أمثال مالك ابن دينار، وإبراهيم بن أدهم، وبشر بن الحارث، ومن لم يُسَمَّ للخطيب - رحمه الله -.

○ وليس أبلغ في ردّ هذه الأقوال من ذكر أحدها، وإن كان يباب النكات أشبه منه بيباب في اللغة والعلم والدين.

(١) «فصول في فقه العربية» للدكتور رمضان عبد التواب (ص ٤١٥).

أخرج الخطيب بسنده، عن محمد بن المثنى السمسار، قال :

« كُنَّا عند بِشْرِ بْنِ الْحَارِثِ وَعِنْدَهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْعَظِيمِ الْعَنْبَرِيِّ ، وَكَانَ مِنْ سَادَاتِ الْمُسْلِمِينَ ، فَقَالَ لَهُ : يَا أَبَا نَصْرٍ أَنْتَ رَجُلٌ قَدْ قَرَأْتَ الْقُرْآنَ وَكُتِبَتْ الْحَدِيثُ ، فَلِمَ لَا تَتَعَلَّمُ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ مَا تَعْرِفُ بِهِ اللَّحْنَ ؛ حَتَّى لَا تَلْحَنَ ؟ »

قال : وَمَنْ يَعْلَمَنِي يَا أَبَا الْفَضْلِ ؟ قال : أَنَا يَا أَبَا نَصْرٍ . قال : فَأَفْعَلْ .

قال : قُلْ : ضَرَبَ زَيْدٌ عَمْرًا . قال : فَقَالَ لَهُ بِشْرٌ : يَا أَخِي وَلِمَ ضَرَبَهُ ؟ قال : يَا أَبَا نَصْرٍ مَا ضَرَبْتَهُ ؛ وَأَمَّا هَذَا أَصْلٌ وَضِعَ .

فَقَالَ بِشْرٌ : هَذَا أَوَّلُهُ كَذَبٌ لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ « (١) .

(١) « اقتضاء العلم بالعمل » للخطيب البغدادي (ص ٩٤) .

● ومثل هذا التلبيس يدفعه الخطيب - رحمه الله - نفسه ، فقد عقد في كتابه « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » باباً في : « الترغيب في تعلُّم النحو والعربية لأداء الحديث بالعبارة السوية » ، ساق فيه بأسناده ، عن نافع : أَنَّ ابْنَ عَمْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : كَانَ يَضْرِبُ وَلَدَهُ عَلَى اللَّحْنِ ، وَلَا يَضْرِبُهُمْ عَلَى الْخَطَأِ .

وعن الشعبي قال : النحو في العلم كالملح في الطعام ، لَا يُسْتَعْنَى عَنْهُ « (١) .

فَلَا تَحُولَنَّكَ امْتِنَالُ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ ؛ فَإِنَّ لَهَا وَجُوهًا ، تَحْمِلُ عَلَيْهَا مَعَ إِحْسَانِ الظَّنِّ بِقَائِلِهَا .

وَأَمَّا أَنْتَ : فَاجْتَهِدْ فِي تَصْحِيحِ النِّيَّةِ لِلَّهِ فِي طَلَبِكَ لِمَا تَفْهَمُ بِهِ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ ﷺ .

(١) « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » للخطيب البغدادي (٢٤/٢) ، وانظر أيضاً « جامع بيان العلم وفضله » لابن عبد البر (ص ٤٦٥) .

واعلم ؛ أن أبا عبيد القاسم بن سلام - رحمه الله -
قال في الشافعي - رحمه الله تعالى - : « كَانَ
الشافعي : مِمَّنْ يُؤْخَذُ عَنْهُ اللُّغَةُ » (١) .

فتدبر أحوال الأئمة تعلم أين الصواب .



عَوْدَةٌ عَلَى بَدْءِ تَعَلُّمِ الْعَرَبِيَّةِ وَتَعْلِيمِهَا فَرَضٌ

○ لَعَلَّهُ رَاعَكَ - أَيُّهَا الْقَارِئُ الْكَرِيمُ - أَنِّي ذَكَرْتُ
فَرَضِيَّةَ تَعَلُّمِ الْعَرَبِيَّةِ وَتَعْلِيمِهَا قَبْلًا ثُمَّ أَكْرَزَهُ عَلَيْكَ
الآن مَرَّةً أُخْرَى .

لَكِنْ هَوْنٌ عَلَيْكَ - أَيُّهَا الْقَارِئُ الْكَرِيمُ - ، وَاعْلَمْ :
أَنَّ عُلَمَاءَ الْأُصُولِ - أَصُولِ الْفَقْهِ - ، قَدْ ذَكَرُوا
لِلْمُجْتَهِدِ شُرُوطًا - وَإِنْ كَانَتْ مِثَارَ خِلَافٍ قَائِمٍ إِلَّا
أَنَّ بَعْضَهَا مِمَّا لَا خِلَافَ عَلَيْهِ - جَعَلُوا مِنْهَا مَا يَتَعَلَّقُ
بِلُغَةِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ .

قَالَ فِي « الْإِبْعَاجِ » فِي شُرُوطِ الْمُجْتَهِدِ :

« عِلْمُ الْعَرَبِيَّةِ ، لُغَةٌ ، وَنَحْوًا ، وَتَصْرِيفًا ، فَلْيَعْرِفْ »

(١) « أدب الشافعي ومناقبه » للرازي (ص ١٣٦) .

الْقَدْرُ الَّذِي يُفْهَمُ بِهِ خُطَابُ الْعَرَبِ، وَعَادَاتُهُمْ فِي
الِاسْتِعْمَالِ، إِلَى حَدٍّ يُمَيِّزُ بِهِ مِنْ صَرِيحِ الْكَلَامِ،
وظَاهِرِهِ، وَمَجْمَلِهِ، وَمَبِينِهِ، وَحَقِيقَتِهِ، وَمَجَازِهِ،
وَعَامَّةٍ، وَخَاصَّةٍ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يَبْلُغَ
مَبْلَغَ الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ^(١).

وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ الشَّيْرَازِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي
صِفَةِ الْمَفْتِي:

«وَيَعْرِفُ الطَّرِيقَ الَّتِي يَعْرِفُ بِهَا مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ
الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ مِنْ أَحْكَامِ الْخُطَابِ، وَمَوَارِدِ الْكَلَامِ
وَمَصَادِرِهِ مِنَ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ، وَالْعَامِّ وَالْخَاصِّ، وَالْمَجْمَلِ
وَالْمَفْصَّلِ، وَالْمَطْلُوقِ وَالْمَقْيَّدِ، وَالْمَنْطُوقِ وَالْمَفْهُومِ، وَيَعْرِفُ
مِنَ اللُّغَةِ وَالنَّحْوِ مَا يَعْرِفُ بِهِ مَرَادَ اللَّهِ تَعَالَى وَمَرَادَ
رَسُولِهِ ﷺ فِي خُطَابِهِمَا»^(٢).

(١) «الإبْهَاجُ فِي شَرْحِ الْمَنَاجِ» لِعَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الْكَافِي السَّبْكِ وَوَلَدِهِ عَبْدِ
الْوَهَّابِ (٢٥٥/٣).

(٢) «الْمَلْعُ فِي أَصُولِ الْفَقْهِ» لِأَبِي إِسْحَاقَ الشَّيْرَازِيِّ (ص ١٢٧).

○ هَذَا نَمُودَجَانِ مِنْ كَلَامِ الْعُلَمَاءِ قَدِيمًا فِي اشْتِرَاطِ
مَعْرِفَةِ الْعَرَبِيَّةِ لِلْمُجْتَهِدِ، وَهَذَا نَمُودَجٌ مِنْ كَلَامِ
الْمُعَاصِرِينَ.

○ قَالَ الدُّكْتُورُ عَبْدُ الْكَدِيمِ زَيْدَانُ فِيهِ أَوَّلُ
شُرُوطٍ مِنْ شُرُوطِ الِاجْتِهَادِ:

«عَلَى الْمُجْتَهِدِ أَنْ يَعْرِفَ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ، عَلَى وَجْهِ
يَتِمَكَّنُ بِهِ مِنْ فَهْمِ خُطَابِ الْعَرَبِ، وَمَعَانِي مَفْرَدَاتِ
كَلَامِهِمْ وَأَسَالِيهِمْ فِي التَّعْبِيرِ، إِمَّا بِالسَّلِيلَةِ^(١)، وَإِمَّا
بِالتَّعَلُّمِ؛ بِأَنْ يَتَعَلَّمَ عُلُومَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ نَحْوِ وَصْرِفٍ
وَبَلَاغَةٍ وَأَدَبٍ وَمَعَانٍ وَبَيَانٍ، وَإِنَّمَا كَانَ تَعَلُّمُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
عَلَى هَذَا الْوَجْهِ ضَرُورِيًّا لِلْمُجْتَهِدِ؛ لِأَنَّ نصوصَ الشَّرِيعَةِ
وَرَدَتْ بِلِسَانِ الْعَرَبِ فَلَا يُمْكِنُ فَهْمُهَا وَاسْتِفَادَةُ الْأَحْكَامِ
مِنْهَا إِلَّا بِمَعْرِفَةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ عَلَى نَحْوِ جَيِّدٍ، لِأَسِيْمَا

(١) لَا تَكُونُ السَّلِيلَةُ اللُّغَوِيَّةُ فِي هَذَا الزَّمَانِ بَغَيْرِ التَّعَلُّمِ، لِأَنَّ أَحَدًا لَا يَعْاشِرُ
أَعْرَابًا أَقْحَاخًا يَتَلَقَّى عَنْهُمْ اللُّغَةَ مِنْ صُغُرِهِ، بَلْ لَا يَدُ مِنَ التَّعَلُّمِ فِي كُلِّ
حَالٍ.

وإنَّ بصوض الكتاب والسنة وردت في غاية البلاغة والفصاحة والبيان، فلا يمكن فهمها حقَّ الفهم وتذوق معانيها وإدراك ما تدلُّ عليه إلاَّ بمعرفة اللغة العربية والإحاطة بأساليبها في التعبير وأسرارها البلاغية والبيانية، وما توميء إليه كلماتها وعباراتها، وبقدر تَضَلُّع المجتهد في معرفة اللسان العربي تكون قدرته على فهم النصوص وإدراك معانيها القريبة والبعيدة، ولكن لا يشترط في المجتهد أن يعرف اللغة معرفة أئمتها والمشهورين فيها، وإنَّما يكفيها منها القدر اللازم لفهم النصوص الشرعية فهماً سليماً، يمكنه من معرفة المراد منها»^(١).

○ ولو أنَّك تَبَعْتَ الشروط التي ذكرها العلماء في عمارة كتب أصول الفقه، لوجدت شرط اللغة قائماً لا يريم، وأظنُّ هذا الأمر كان من الوضوح بحيث

(١) «الوجيز في أصول الفقه» لعبد الكريم زيدان (ص ٤٠٢).

لا يُحتاج إلى الحديث عنه، وما كان من بحثنا أن نُطِيل النَّفْسَ حتى ننتهي إلى أن اللغة شرط في المجتهد لا مناص له منه.

إنَّما الكلام في هذا البحث: عن عمارة المسلمين عرباً وعجمًا، وعن العلماء ممن لم يبلغ مرتبة الاجتهاد، وعن الخطباء والدعاة ومعلّمي الدين، هل هؤلاء يلزمهم أن يتعلّموا من العربية ما يفهمون به كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، أم يكفي أن يظنّوا على أعجميتهم في العربية، أو عجميتهم في غيرها لا يُحسنون جميعاً من العربية شيئاً؟؟

والشوكاني - رحمه الله - بعد أن يذكر شرط اللغة في المجتهد، يذكر قول الشافعي بوجوب أن يتعلّم المسلم من لسان العرب ما يبلغه جهده في أداء فرضه، ويذكر قول الماوردي بأن معرفة لسان العرب فرض على كل مسلم من مجتهد وغيره.

قال الشوكاني - رحمه الله - :

« الشرط الثالث : - اي : من شروط المجتهد - ان يكون عالمًا بلسان العرب ، بحيث يمكنه تفسير ما ورد في الكتاب والسنة من الغريب ونحوه ، ولا يشترط أن يكون حافظًا لها عن ظهر قلب ، بل المعتبر : أن يكون متمكنًا من استخراجها من مؤلفات الأئمة المشتغلين بذلك ؛ وقد قرَّبوها أحسن تقريب ، وهذَّبوها أبلغ تهذيب ، ورَتَّبوها على حروف المُعْجَم ترتيبًا لا يصعب الكشف عنه ، ولا يبعد الاطلاع عليه ، وإنما يتمكن من معرفة معانيها ، وخواص تراكيبها ، وما اشتملت عليه من لطائف المزايا : مَنْ كان عالمًا بعلم النحو والصرف والمعاني والبيان ، حتى يثبت له في كل فن من هذه ملكة^(١) يستحضر بها كل ما يحتاج إليه

(١) انظر في تفصيل هذه «الملكة» مقدمة ابن خلدون (ص ٥٢٢) وما حولها .

عند وروده ، فإنه عند ذلك ينظر في الدليل نظرًا صحيحًا ، ويستخرج منه الأحكام استخراجًا قويًا .

ومَنْ جعل المقدار المحتاج إليه من هذه الفنون هو معرفة مختصراتها أو معرفة كتاب متوسط من المؤلفات الموضوعة فيها ، فقد أبعد ؛ بل الاستكثار من الممارسة لها ، والتوسُّع في الاطلاع على مطولاتها : مما يزيد المجتهد قوة في البحث ، وبصرًا في الاستخراج ، وبصيرة في حصول مطلوبه .

والحاصل : أنه لا بُدَّ أن تثبت له الملكة القوية في هذه العلوم ، وإنما تثبت هذه الملكة بطول الممارسة وكثرة الملازمة لشيوخ هذا الفن .

قال الإمام الشافعي : يجب على كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما يبلغه جهده في أداء قرضه .

وقال الماوردي: ومعرفة لسان العرب فرض على كل مسلم من مجتهد وغيره» (١).

● **فانظر - رحمك الله -** ؛ كيف عَقَّبَ هذا الإمام المحقِّق شرط اللغة في المجتهد بقول الإمام الشافعي وبقول الماوردي، حتى يفصل بين ما يجب على المجتهد من الإمام باللغة إمامًا مستفيضًا، وما يجب على المسلم لفهم كتاب ربه وسنة نبيه ﷺ.

● والذي دفعنا إلى ذكر المجتهدين أصلًا في هذا البحث، أن هناك خلطًا عند الناس - من غير أهل العلم - في مفهوم الاجتهاد، فهم يصرفونه إلى المجتهد المطلق، ويستحضرون صورًا ذهنية لا تنطبق إلا على أمثال الأئمة الأربعة، ويجعلون الكتاب والسنة معطلين عن الفهم فيهما، والاستنباط منهما؛ لأنه قل أن تجد أحدًا يصل إلى رتبة الاجتهاد المطلق التي وضع لها

(١) «إرشاد الفحول» للشوكاني (ص ٢٥٢).

بعض أهل الأصول شروطًا ربما لم تتوفر في أصحاب النبي ﷺ، وهكذا يخلط الناس.

لذلك؛ أنقل لك قول الأمام - رحمه الله -
بعد ان ذكر شرط المجتهد المطلق قال:

«وذلك كله إنما يُشترط في حق المجتهد المطلق المتصدي للحكم والفتوى في جميع مسائل الفقه.

وأما الاجتهاد في حكم بعض المسائل: فيكفي فيه أن يكون عارفاً بما يتعلّق بتلك المسألة، وما لا بُدّ منه فيها ولا يضره في ذلك جهله بما لا تعلّق له بها، ممّا يتعلّق بباقي المسائل الفقهية، كما أنّ المجتهد المطلق قد يكون مجتهدًا في المسائل الكثيرة، بالغا رتبة الاجتهاد فيها، وإن كان جاهلاً ببعض المسائل الخارجة عنها، فإنه ليس من شرط المفتي أن يكون عالمًا بجميع أحكام المسائل ومداركها، فإن ذلك ممّا لا يدخل تحت وشع البشر.

ولهذا ، نَقَلَ عن مالائِ أَنَّهُ سُئِلَ عن أربعين مسألةً ،
فَقَالَ في سِتٍّ وثلاثين منها :

« لا أدري »^(١)

إذا نظرت إلى كلام الشوكاني والآمدي - السابق -
رحمهما الله - ، ثم نظرت إلى كلام الشاطبي الآتي
بعد إن شاء الله - : علمت أن كلمة « الناظر » في كلام
الشاطبي يمكن أن تتوجه إلى مُطْلَقِ الناظر في كتاب الله
وسنة نبيه ﷺ ، ثم يكون الأخذ من اللغة على قدر
الوسع والطاقة .

○ قال الشاطبي - رحمه الله - :

« على « الناظر » في الشريعة والتكلم فيها أصولاً
وفروعاً أمران :

أحدهما : أن لا يتكلم في شيء من ذلك حتى يكون
عربيّاً^(١) ، أو كالعربي في كونه عارفاً بلسان العرب ،
بالغا فيه مبالغ العرب ، أو مبالغ الأئمة المتقدمين كالخليل
وسيويه والكسائي والفرّاء ومن أشبههم وداناهم ،
وليس المراد أن يكون حافظاً كحفظهم وجامعاً
كجمعهم .

وإنما المراد : أن يصير فهمه عربيّاً في الجملة ..
وقد خرّج ابن وهب عن الحسن أَنَّهُ قِيلَ له : رأيت
الرجل يتعلّم العربية ليقيم بها لسانه ، ويصلح بها
منطقه ؟ قال : نعم ، فليتعلّمها ؛ فإنّ الرجل يقرأ فيعيا
بوجهها فيهلك .

والأمر الثاني : أَنَّهُ إذا أشكل عليه في الكتاب أو في
السنة لفظ أو معنى فلا يُقَدِّم على القول فيه دون أن
يستظهره بغيره ممّن له علم بالعربية ، فقد يكون إماماً
(١) أي : يكون عربيّاً جنساً ولغةً ؛ بدليل قوله بعدها : أو كالعربي ، أي لغة .

(١) « الإحكام في أصول الأحكام » للآمدي (٢٢١/٤) .

فيها ولكنّه يخفى عليه الأمر في بعض الأوقات،
والأولى في حقّه الاحتياط، إذ قد يذهب على العربي
الحض بعض المعاني الخاصة حتى يسأل عنها»^(١).

وخاصّة القول :

أنّ العربية من الدين . وأنّ تعلّمها لفهم مقاصد
الكتاب والسنة قربة من أجل القربات إلى الله عزّ
وجلّ، وأنّ معرفة ما يقيم به المسلم فرضه فرض
واجب عليه .

وقد تقدّم قول الشافعي - رحمه الله - : يجب على
كلّ مسلم أن يتعلّم من لسان العرب ما يبلغه جهده في
أداء فرضه .

وكذلك تقدّم قول الماوردي : ومعرفة لسان العرب
فرض على كلّ مسلم من مجتهد وغيره .

(١) «الاعتصام» للشاطبي (٢/٢٩٧).

وهنا قول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - قال :

«إنّ الله لمّا أنزل كتابه باللسان العربيّ، وجعل
رسوله مُبلّغاً عنه الكتاب والحكمة بلسانه العربيّ،
وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلّمين به : لم يكن
سبيل إلى ضبط الدين ومعرفة إلاً بضبط هذا اللسان،
وصارت معرفته من الدين، وصار اعتياد التكلّم به أسهل
على أهل الدين في معرفة دين الله، وأقرب إلى إقامة
شعائر الدين، وأقرب إلى مشابهتهم للسابقين الأوّلين من
المهاجرين والأنصار في جميع أمورهم .

واللسان تقارنه أمور أخرى : من العلوم، والأخلاق،
فإنّ العادات لها تأثير عظيم فيما يحبّه الله، وفيما
يكرهه، فلهذا جاءت الشريعة بلزوم عادات السابقين
في أقوالهم وأعمالهم، وكراهة الخروج عنها إلى غيرها
من غير حاجة»^(١).

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص ١٦٢).

وذكر الشيخ - رحمه الله - في موضع آخر: أن معرفة اللغة فرض واجب، لأن فهم الكتاب والسنة فرض واجب، ولا سبيل إليه إلا بفهم العربية، فكانت أرضاً واجباً.

قال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - :

« إن نَفَسَ اللغة من الدِّين، ومعرفةُها فرض واجب، فإنَّ فَهَمَ الكتابِ والسنةِ فرض، ولا يُفْهَمُ إلا بفَهْمِ اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب »^(١).

وبعد :

فلعلَّ بعضَ الذين لا يستطيعون أن يفهموا واضح الكلام - لعجز في عقولهم أو فساد في نياتهم - : يظنون أننا ندعو إلى العكوف على آثار المعاصرين من أصحاب القصص، أو أصحاب القصص - زعموا - ،

(١) « اقتضاء الصراط المستقيم » (ص ٢٠٧).

وترك الكتاب والسنة بحجة الإمام بالعربية من أجل الدين، ومن ظن هذا: فأسأل الله أن يمتن عليه بمثل عقل الآدميين، أو أن يريخ الأرض من فسادِه وشرِّ قلبِه.

إنما أردت أن يُولِيَ المسلم اللغة بعضاً من اهتمامه، شيئاً من جهده، فيقرأ في كتب السلف ومن سار على دربهم من أصحاب الأدب الهادف، لا من أصحاب الأهواء والمذاهب المحدثّة، بل عليك أن تستعين بالأدب على ما في أخلاق هؤلاء من قلة الأدب!

وعليك أن تعلم فساد حياتنا الأدبية اليوم بالنظر في «لحظة من فساد حياتنا الأدبية»^(١)، و«رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» للأستاذ محمود محمد شاكر، والنظر في كتاب «تحت راية القرآن» للعلامة الرافعي - رحمه الله - .

(١) «المتني» للأستاذ محمود شاكر (ص ٦).

**ثم عليك بتصحيح النية في الطلب، وبذل
المجهود، واجعل نضب عينيك قول القاضي
الجراني - رحمه الله - :**

يَقُولُونَ لِي فِيكَ انْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا
رَأَوْا رَجُلًا عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمًا
وَمَا زِلْتُ مُتَحَارًّا بِعِزِّ بَنِي
مِنَ الذَّمِّ أَعْتَدُ الصِّيَانَةَ مَعْنَمًا
إِذَا قِيلَ : هَذَا مَشْرَبٌ قُلْتُ : قَدْ أَرَى
وَلَكِنَّ نَفْسَ الْخُرِّ تَحْمِلُ الظَّمَأَ
وَلَمْ أَقْضِ حَقَّ الْعِلْمِ إِنْ كَانَ كُلَّمَا
بَدَأَ مَطْمَعٌ صَيْرُتُهُ لِي سُلْمًا
وَلَمْ أَتَذَلَّ فِي خِدْمَةِ الْعِلْمِ مُهْجَتِي
لِأَخْدَمَ مَنْ لَا قَيْثَ لَكِنْ لِأَخْدَمَا

أَشْفَى بِهِ غَرْسًا وَأَجْنِيهِ ذِلَّةً
إِذَا فَاتَتْيَاغُ الْجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمًا
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ
وَلَوْ عَظُمُوهُ فِي الثُّنُوسِ تَعَظَّمَا

● واللَّهُ عز وجل يتولَّاك بحفظه وتسديده، ويمُنُّ
عليك بالعلم والحلم وهو على كل شيء قدير .

واستغفر الله العظيم : من طغيان القلم، وسوء
القصد، وأعوذُ به من فتنة الخيا والممات، وفتنة العُجب
والكبر، وأعوذُ به من شرِّ كلِّ دابَّةٍ هو آخذٌ بناصيتها إنَّ
رَبِّي على صراطٍ مستقيم .

واسأل الله العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته
الغلى أن يبارك في هذه السطور أبدًا، وأن ينفع بها كلَّ
مسلم يرجو الله واليوم الآخر، وأن يجعلها لي لا علي .
إنَّه على كل شيء قدير .

والحمدُ لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وظاهراً وباطناً ، ودائماً
وسرماً .

وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وآلِه وصحبه صلاةً
وسلاماً دائمين إلى يوم الدين .

وسبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ،
أستغفرك وأتوب إليك .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وكتب

أبو عبد الله

محمد بن سعيد بن رسلان

○ المصادر والمراجع ○

1- القرآن الكريم .

2- آداب الشافعي ومناقبه - الإمام أبو محمد
عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي - تحقيق الشيخ
عبد الغني عبد الخالق - مكتبة التراث الإسلامي
بحلب - بدون تاريخ .

3- أباطيل وأسمار - الأستاذ العلامة محمود محمد
شاكر - مطبعة المدني - طبعة ثانية 1972م .

4- الإبهاج في شرح المنهاج - الإمام علي بن
عبد الكافي السبكي وولده عبد الوهاب - دار
الكتب العلمية - الطبعة الأولى 1404هـ .

5- الإحكام في أصول الأحكام - الإمام أبو الحسن
علي بن أبي علي الآمدي - دار الحديث - بدون
تاريخ .

6- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول
- للشوكاني - مطبعة مصطفى البابي الحلبي -
الطبعة الأولى 1356 هـ .

7- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن - العلامة
محمد الأمين الشنقيطي - طبعة المدني 1386 هـ .

8- الاعتصام - العلامة المحقق أبو إسحاق إبراهيم بن
موسى الشاطبي - دار المعرفة - طبعة أولى
1402 هـ .

9- إعجاز القرآن - القاضي أبو بكر الباقلاني -
تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر - دار المعارف
- طبعة خامسة - بدون تاريخ .

10- اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم
- شيخ الإسلام أحمد بن تيمية - تحقيق الشيخ
محمد حامد الفقي - مطبعة السنة المحمدية -
1369 هـ .

11- اقتضاء العلم العمل - الإمام أبو بكر أحمد بن
علي بن ثابت الخطيب البغدادي - تحقيق العلامة
محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي
- ط . رابعة 1397 هـ .

12- الإيمان - شيخ الإسلام أحمد بن تيمية - مكتبة
أنس بن مالك - 1400 هـ .

13- تاريخ آداب العرب - الأستاذ العلامة مصطفى
صادق الرافعي - دار الكتاب العربي ط . ثانية
1394 هـ .

14- تاريخ الدعوة إلى العامة وأثرها في مصر - دار
المعارف - الأستاذة الدكتورة نفوسة زكريا سعيد
- ط . ثانية 1980 هـ .

15- تاريخ العرب العام - سيدئو - ترجمة الأستاذ
عادل زعيتير - مكتبة عيسى البابي الحلبي - ط .
ثانية 1389 هـ .

16- تحت راية القرآن - الأستاذ العلامة مصطفى صادق الرافعي - دار الكتاب العربي - ط .
سابعة 1394 هـ .

17- تفسير الطبري - لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري - تحقيق العلامة محمود محمد شاكر - دار المعارف بمصر - ط . ثانية 1972 م .

18- تفسير القرآن العظيم - الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير - دار إحياء التراث العربي بيروت - ط . أولى 1405 هـ .

19- تفسير القرطبي - الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي - دار الشعب - القاهرة .

20- جامع بيان العلم وفضله - للإمام أبي عمر يوسف ابن عبد البر - دار الكتب الحديثة - القاهرة - بدون تاريخ .

21- جامع الرسائل - شيخ الإسلام أحمد بن تيمية - تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم - مطبعة المدني - ط . أولى 1405 هـ .

22- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع - الإمام أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي - تحقيق الدكتور محمود الطحان - دار المعارف بالرياض - ط . أولى 1403 هـ .

23- الرسالة - الإمام الشافعي - تحقيق العلامة أحمد محمد شاكر - مكتبة دار التراث بالقاهرة - ط . ثانية 1399 هـ .

24- سلسلة الأحاديث الصحيحة - العلامة محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي .

25- الشرع واللغة (مع : الكتاب والسنة يجب أن يكونا مصدر القوانين في مصر) - العلامة أحمد

محمد شاكر - دار الكتب السلفية - ط . ثلاثة
1407هـ .

26- صحيح مسلم بشرح النووي - الإمام محيى
الدين أبوزكريا يحيى بن شرف النووي - المطبعة
المصرية - بدون تاريخ .

27- عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير - اختصار
وتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر - دار المعارف
بمصر - بدون تاريخ .

28- فتح الباري بشرح صحيح البخاري - الإمام
الحافظ أحمد بن علي بن حجر - المطبعة السلفية
بمصر - الطبعة الثانية 1400هـ .

29- فصول في فقه العربية - العلامة الدكتور رمضان
عبد التواب - مكتبة الخانجي - ط . ثلاثة -
1408هـ .

30- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن - الإمام ابن القيم
- دار الكتب العلمية - بدون تاريخ .

31- في ظلال القرآن - الأستاذ سيد قطب - دار
الشروق - الطبعة الثالثة عشرة - 1407هـ .

32- قطوف أدبية - الأستاذ العلامة عبد السلام محمد
هارون - مكتبة السنة - ط . أولى 1409هـ .

33- الكشف عن حقائق التنزيل - الشيخ جابر الله
أبو القاسم بن عمر الزمخشري - دار المصنف .

34- اللغة الشاعرة - الأستاذ عباس محمود العقاد -
مكتبة غريب - بدون تاريخ .

35- اللمع في أصول الفقه - الإمام أبو إسحاق
إبراهيم بن علي الشيرازي - دار الكتب العلمية -
ط . أولى 1405هـ .

36- المتنبي - الأستاذ العلامة محمود محمد شاكر -
دار المدني ومكتبة الخانجي - طبعة 1407هـ .

37- مجموع فتاوى شيخ الإسلام - جمع وترتيب

الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وولده
محمد - مكتبة ابن تيمية - بدون تاريخ .

38- المزهري في علوم اللغة وأنواعها للإمام عبد الرحمن
جلال الدين السيوطي - تحقيق الأستاذ محمد
أحمد جاد المولى وزميله - مطبعة عيسى البابي
الحلبي - بدون تاريخ .

39- مقدمة ابن خلدون - العلامة الإمام عبد الرحمن
ابن خلدون - دار الشعب - بدون تاريخ .

40- النهاية في غريب الحديث والأثر - الإمام مجد
الدين محمد الجزري بن الأثير - تحقيق الأستاذين
طاهر الزاوي ومحمود الطناحي - المكتبة العلمية
بيروت - بدون تاريخ .

41- وحي القلم - الأستاذ العلامة مصطفى صادق

الرافعي - دار المعارف - بدون تاريخ .

42- الوجيز في أصول الفقه - الدكتور عبد الكريم
زيدان - مؤسسة الرسالة - ط . أولى 1987 م .

43- الوساطة بين المتنبئ وخصومه - القاضي علي بن
عبد العزيز الجرجاني - تحقيق الأستاذين محمد
أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي -
مطبعة عيسى البابي الحلبي - بدون تاريخ .



○ فهرس الموضوعات ○

- 7 مقدمة المقدمات ، وخطبة الحاجة
- اللغة هي خزانة الفكر الإنساني ، وادخار اللغة العربية
- 9 من نفيس البيان ما يعجز سائر اللغات
- تحدي القرآن العرب في مكة أن يأتوا بسورة من مثله
- 10 وبيان عجزهم
- تجدد التحدي في المدينة ، والنفي أن يأتوا بمثله على
- 12 التأيد ، وبيان أن هذا معجزة أخرى
- بيان أن الأحرف في أوائل السور التي ذكرت فيها
- بيان لإعجاز القرآن ، واختيار شيخ الإسلام ابن تيمية
- 14 لهذا الوجه ، وكذلك الزمخشري
- الرد على من زعم أن الإعجاز في القرآن في تشريعاته

أو قوانينه دون نظمه ، وبيان أنه على قدر المعرفة بلغة

العرب تكون المعرفة بفضل القرآن 20

قول القاضي البلاقاني إن العربي الذي لا يعرف

اللسان العربي معرفة جيدة ، شأنه شأن الأعجمي

مع الإعجاز 23

نصر النبي ﷺ أن القرآن هو معجزته الكبرى 25

جمع بعضهم إعجاز القرآن في أربعة أشياء 27

النبي ﷺ أفصح من نطق العربية ، وقد أوتي

جوامع الكلم 29

معنى جوامع الكلم 31

لفظة « الحكمة » الواردة في بعض آيات القرآن

معناها « السنة » 33

قول الشافعي : ولسان العرب أوسع الألسنة

مذهبًا ، وأكثرها ألفاظًا 35

إنكار الشافعي على من زعم أن في القرآن لفظًا

أعجميًا ، وقوله : وأولى الناس بالفضل في اللسان

من لسانه لسان النبي ﷺ 38-39

قول الشافعي : كل لسان تبع للسان النبي ﷺ ،

وكل أهل دين قبله عليهم اتباع دينه 39

قول الشافعي : على كل مسلم أن يتعلم من لسان

العرب ما بلغه جهده 42

بيان الشيخ أحمد شاكر للمعنى السياسي والقومي

في تعلم العربية ونشرها 43

الرد على من زعم أن العرب الفصحاء الذين

نزل القرآن بلسانهم لم تنفعهم فصاحتهم 46

عامة الخطأ في الدين من قلة الفهم لألفاظ الكتاب

والسنة ، وبيان شيخ الإسلام لذلك 49

- 52 سبيل العلم الحق : النقل المصدق ، والنظر المحقق
قول شيخ الإسلام : نحن مأمورون أمر إيجاب
أو أمر استحباب أن نحفظ القانون العربي ،
ونصلح الألسنة المائلة عنه
54 اللغات من أعظم شعائر الأمم التي بها يتميزون
55 الصلة بين ذل الشعب وذل لغته
57 اللغة هي الهدف الأول للمستعمرين ، والشعب
يتحول أول ما يتحول من لغته
61 كراهة الشافعي أن يسمى التاجر سمسارًا
62 الحفاظ على اللغة من تمام حفظ الإسلام
64 تحول أهل البلاد المفتوحة عن ألسنتهم إلى اللسان
العربي
66 شكوى « ألفارو » من إقبال نصارى الأندلس على
اللغة العربية ، وبيان أن اللغة العربية سيدة اللغات
67

- بيان الدكتور رمضان عبد التواب للفرق بين اللغة
العربية ، واللغات الحية المعاصرة من حيث التحول
والثبات
70 أثر البيئة في لغة ساكنيها
72 اللجوء إلى « الرمز » ضرب من الجبن اللغوي ،
وبيان الأستاذ محمود شاكر لذلك
75 سبب اختصاص العرب بالفضل
75 البيان هو نعمة الله الكبرى التي أنعم بها على عباده
78 اللغة العربية لغة سهلة ، ودعوة بعضهم إلى كتابة
العربية بالحروف اللاتينية ، ورد الشيخ أحمد شاكر
80 بيان الدكتور نفوسة زكريا سعيد أن العامية ظاهرة
في كل اللغات
82 قول الأستاذ عبد السلام هارون : « ليس معنى تيسير
النحو أن نقضي على قواعده الأساسية »
84

بيان الدكتور رمضان عبد التواب لصعوبة اللغة الألمانية ،

وأن العربية ليست بدعًا في صعوبة قواعدها 85

اعتراض مدفوع 89

تعلم العربية وتعليمها فرض 93

قول الشافعي ، يجب على كل مسلم أن يتعلم من

لسان العرب ما يبلغه جهده في أداء فرضه ،

وقول الماوردي ، ومعرفة اللسان العربي فرض على

كل مسلم من مجتهد وغيره ، ونقل الشوكاني ذلك 99

تفرقة الآمدي بين المجتهد في بعض المسائل والمجتهد

المطلق ، وقول الشاطبي : على الناظر في

الشريعة 101-102

قول شيخ الإسلام : إن نفس اللغة من الدين ، ومعرفتها

فرض واجب . وقولنا : إن الغرض من معرفة العربية

ليس العكوف على القصص وما أشبه 106

الحض على قراءة كتابي الأستاذ محمود محمد شاكر :

«أباطيل وأسمار» و«رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» 107

الحض على قراءة كتاب الأستاذ مصطفى صادق

الرافعي «تحت راية القرآن» ، وذكر أبيات

القاضي الجرجاني في صيانة العلم 107-108-109

خاتمة الكتاب 110

فهرس المصادر والمراجع 111

فهرس الموضوعات 121



مطبعة العمرانية للأوفست

ت : ٧٧٧٩٣٩٨